علم البيان وتاريخه

obeikandl.com

obeikandl.com

علم البيان وتاريخه

تأليف

الشيخ علي عبد الرازق

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

obeikandl.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولي
١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة ت : ٥٩٢٢٦٢٠ ـ ٥٩٣٨٤١١ فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧
ص.ب ٢١ توزيع الظاهر ـ القاهرة
E-mail : alsakafa-alDinaya@hotmail.com

رقم الايداع	٢٠٠٤/ ٩٧٠٢
I.S.B.N الترقيم الدولي	977- 342 - 233 -X

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

فى أوائل السنة الهجرية الحاضرة سنة ثلاثين وثلاثمائة وألف أمليت فى الجامع الأزهر الشريف دروسًا فى علم البيان توخيت فيها الفائدة الحقيقية للطلاب وتهذيب مباحث الفن مبلغ جهدى، ثم جمعت تلك الأمالى فأصلحت فيها ما تيسر إصلاحه وأخرجتها للناس كتابًا منشورًا.

فإن أفاد ونفع فذلك ظنى به ورجائى فيه، وإن كان دون ذلك فما أردت إلا إصلاحًا، وما نويت إلا نفعًا، ولكل امرئ ما نوى ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

القاهرة فى رمضان سنة ١٣٣٠هـ

على عبد الرازق

أغسطس سنة ١٩١٢م

obeikandl.com

obeikandl.com

مباحث تمهيدية:

تاريخ علم البيان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وسائر النبيين وأتباعهم أجمعين.

علاقة الأمم بلغاتها:

أما بعد، فإن الله تعالى خص كل أمة من الناس بلغة ممتازة عن غيرها تسير مع الأمة سريعًا وبطيئًا، ورفعة وانحطاطًا، وموتا وحياتًا، فقد شاهدنا فى سنن الحوادث الماضية وعرفنا من نظام الله تعالى فى هذا الكون أن أمة من الأمم لن تموت إلا مع موت لغتها كما أن لغة من اللغات لا تبيد إلا وتستتبع على الأثر موت أمتها وفناءها ـ وهذا التاريخ أمامنا يكشف لنا عن قبور الأمم البائدة، فنجد فى كل قبر لغة ومع كل أمة لسانًا ـ وإذا صح ما قيل من أن الإنسان بأصغريه قلبه ولسانه وأن لسان الفتى نصف ونصف فؤاده، فلا شك أن الأمة كالإنسان لسانها نصفها، فلا بقاء لها إلا إذا كان لسانها حيا باقيا، لهذا نشأ فى الأمم عنايتها بلغاتها، واجتهادها فى صوتها وحفظها، ومبالغتها فى ذلك مبالغة البخيل فى حفظ ماله والجبان فى صيانة روحه، وفى أمة الفرنسيين مثال محسوس للناظرين، لهم فى أرجاء البلاد وأقاصى الأرض جماعات كثيرة يعملون على بث اللغة الفرنسية وإشاعتها فى

الناس، وحكومتهم من ورائهم تمدهم بالأموال وتذلل لعملهم كل عسير، وكذلك تجدون باقى الأمم الراقية فى وقتنا هذا تتنافس وتتبارى فى خدمة لغتها والمحافظة عليها ورفع شأنها، ذلك بأنهم عرفوا أن اللغة عنوان الأمة وقدروها قدرها.

علاقة الإسلام باللغة العربية:

هذا وقد جاء محمد ﷺ بكتاب من ربه اختار له لغة العرب، وبرسالة من عنده بلغها إلينا بلسان عربى فاهتدى بهديه من أراد الله له الهداية، ونشأ من أولئك الذين آمنوا به أمة واحدة هى أمة الإسلام، وكان لسانها بالضرورة واحدًا هو لسان العرب الذى جاء به كتابهم ودونت به شريعتهم وأحكامهم، فبعد أن كانت اللغة العربية لغة خاصة بأمة صغيرة من الأمم فى واد غير ذى زرع لا تتجاوز مساحته ٣,١٥٦,٥٥٨ ك.م.م. أدركتها عناية الله فربت، وبارك فيها فصارت بعد ذلك لغة أمة كبيرة زاهية العمران، واسعة البلدان تتغلغل فروعها فى كل بقعة من بقاع الأرض ذات الطول والعرض، تلك هى أمة محمد ﷺ، فبذلك انتقلت اللغة العربية من طور إلى طور، وصارت عنوانًا للمسلمين عامة وشعارًا للإسلام تنزل معه حيث نزل وتعدل معه أين عدل، وترحل معه متى ارتحل، بعد أن كانت لغة العرب خاصة من أبناء قحطان وعدنان، ولو بقيت اللغة العربية خاصة بالعرب لبقيت محصورة معهم فى بلادهم، ولكنا نجد العربية دخلت إلى بلاد الهند والفرس وبلاد جاوه وروسيا ووصلت إلى كل مملكة دخلها الإسلام، ذلك لما قلنا من أن هذه اللغة الشريفة إنما هى عنوان الإسلام ومميز أمة المسلمين، فبذلك يكون

شأن اللغة العربية مع الإسلام شأن كل لغة مع أمتها، تقارنه صعودًا وهبوطًا، وتسايره ارتفاعًا وانحطاطًا، من أجل ذلك نشأت بين المسلمين العناية بهذه اللغة من يوم أن اختارها الله تعالى لغة دينه القويم إلى يومنا هذا، وستبقى إن شاء الله تعالى هذه اللغة وتدوم العناية بها ما دام فوق وجه الأرض كتاب مبدوء بفاتحة الكتاب ومختوم بسورة الناس، وما دام فوق وجه الأرض إنسان يولى وجهه شطر البيت الحرام ويناجى خالقه الأعلى قائلاً: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

عناية المسلمين باللغة العربية:

عناية الإسلام باللغة العربية قديمة تجدها ظاهرة فى كلام الله تعالى حين تقرأ مثل قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ وغير ذلك مما ورد فيه وصف الكتاب بكونه عربيًا فى سياق المدح والتعظيم، وكذلك تجدون هذه العناية من رسول الله ﷺ ومن خلفائه من بعده، حتى كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمر الناس على المنبر بأن يروُّوا أولادهم شعر العرب، وما ذلك إلا حرصًا على اللغة وعناية بها.

نشأة الحاجة إلى علوم اللسان العربى:

اتسع نطاق الإسلام ودخل الناس فى دين الله أفواجًا من كل بلد وكل لسان، وامتدت فتوح المسلمين إلى ما وراء بلاد العرب، وتآخى فى دين الله العربى والعجمى، فلما صار الأمر لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه وخاف أن تفسد ملكة العرب ويضعف لسانهم العربى من احتكاكه بالعجمة أمر أن

تجعل اللغة علمًا تستنبط قواعده وتقرر قضاياه ليتعلمها الناس فتصون لسانهم من الخطأ وإعرابهم من اللحن.

عدم حاجة العرب إلى علوم اللغة:

وما كانت لغة العرب قبل ذلك اليوم علمًا يدون ولا كان العرب يعرفون تدوين اللغات، وإنما كانت اللغة والإعراب ملكة لهم وطبعًا لا يمكن العدول عنه، ولا يميل لسانهم إلى غيره، وكان العربى بسليقته يعرب الكلام فيرفع الفاعل وينصب المفعول سجية غير محدثة من دون أن يعرف أن هذا فاعل وأن كل فاعل مرفوع مثلاً، وكما أن أحدنا الآن إذا أراد أن يدعو رجلاً اسمه محمد فإنه لا يدعوه حسنًا وإنما يدعوه بالاسم الصحيح طبعًا غير متكلف، فكذلك العربى إذا ورد اللفظ فى كلامه خبرًا لأن أو اسمًا لكان أو مبتدأ أو خبرًا فإنه يجرى على لسانه من غير عناية مجرى الصحة والصواب، وما كان للعربى أن يخطئ فى مواضع الإعراب إلا كما يخطئ أحدنا فى إطلاق اللفظ المألوف بيننا على غير ما يدل عليه، وذلك نادر لا يخشى منه على استعمال اللغة شر كبير، فلما كان ما ذكرنا من امتداد الحبل بين العرب والعجم واختلاط العربية بأخواتها الحبشية والرومية وتعلموها تعلمًا وجرى بها لسانهم جريا صناعيًا غير صادر عن الفطرة والطبع بل عن تقليد ومحاكاة، هنالك التوت الألسن واستعدت للخطأ وظهر فى اللغة اللحن، وخاف أمير المؤمنين على كرم الله وجهه أن تضيع اللغة وتغلب عليها العجمة فأمر أبا الأسود[1]

(١) هو أبو الأسود الدئلى (بضم الدال وكسر الهمزة، نسبة إلى دئل كعنب كما يؤخذ من القاموس) واسمه ظالم بن عمرو بن سفيان، ينتهى نسبه إلى كنانة بن خزيمة، توفى سنة ٦٩هـ وله من العمر ٨٥ سنة.

بأن يستنبط للغة قواعـد مضبوطة ويضع لها ضوابط كلية ويبـين لها أساسات محكمـة ليرجع إليها الدخـيل فى اللغة ويرتسمـها العجـمى الذى تلقن اللغة بالتـعلم لا بالطبع ويلاحظها العـربى الذى اختلط بالعـجم حتى خـيف على فطرته وسجيته.

من ذلك العـهد بدأت الأنـظار تتجـه إلى اللغـة العربيـة وطفق العلمـاء ينعمـون النظر فى ثناياها لاستـنباط قواعـدها، ووضع طرق التخـاطب بها، فوضعت بزور قسم مـن العلم كبر فيما بعد ونمـا واتسعت دولته، وهو الذى سمى فيما بعد «علوم اللغة العربية».

وصار للغة العـربية علوم شتى ذات أصول وفروع وأنواع وفصـول، كما كان للموجـودات الحية مثـلاً علوم شتى وللأحجار والمـعادن علوم كذلك، وكما كان للدين الإسلامى علوم تسمى علوم الدين.

على هذا النحو الذى سردناه كانت نشـأة علوم اللسان العربى التى تنتظم النحـو والصرف والمـعانى، وهذا العلم الذى نحـن شارعون فـيه بـعون الله تعالى وتوفيـقه ويسمى علم البيـان، كما سنعرفه، وتنتظم أيـضًا علوم البديع والعروض والقـوافى والإنشاء وآداب اللغـة العربيـة وتاريخهـا، وهلم جرا، فجميع هذه العلوم وما إليها تجتمع فى أنها باحثة عن لسان العرب وخادمة له وواضعة لقواعده، حتى كان لنا أن نـقول: إنها كلها ذات موضوع واحد وهو اللفظ العربى إلا أنها تخـتلف بعد ذلك فى جهة البحث وحيثـية الموضوع، ولذلك كانت عـلومًا مخـتلفة ذات أسـماء متـميزة، ولا يمنـع ذلك من أنها جميعًا تشترك فى أنها متعلقة بلسان العرب باحثة عنه فليكن ذلك جنسا لها.

الآن وقد فرغنا من بيان هذه العلوم كيف نشأت مجملة، بقى علينا أن نعرف كيف اختلفت جهاتها، وتشعبت حيثياتها، لينتج لنا من ذلك معرفتنا بهذا العلم الذى نحن شارعون فيه معرفة خاصة، وتحديد حقيقته ونسبته إلى غيره من العلوم، ومعرفة شيء من تاريخ نشأته وتطوره فى أطواره المختلفة.

كان غرض علماء المسلمين كما قلنا إنما هو استنباط قواعد للغة العربية، وضبطها تحت قوانين كلية، ليسهل تعلمها ويؤمن دخول الخطأ فيها.

وضع قواعد النحو والصرف:

ولقد كان أول ما بدأ للناس من الخطأ فى أساليب العربية هو الخطأ فى إعرابها، وفى حركات أواخر الكلم كما تسمعون من قصة أبى الأسود الدئلى حين سمع بنته تقول ما أشدُّ البرد، بضم الدال من أشد، وهى إنما تريد طريق الفتح كما فى باقى الحديث ـ وكما فى القصة الأخرى التى قيل فيها: ما أحسنُ السماء ـ بضم النون موضع فتحها ـ وغير هذا مما تجدونه فى السير[1] لذلك انبعثت همة أمير المؤمنين على وباقى علماء الإسلام إلى استخراج علم إعراب الكلمات وبنائها ـ وكان ذلك هو علم النحو.

وكذلك يقال[2]: إن عليا، كرم الله وجهه، فطن إلى خطأ آخر فى

---

(١) روى أن بنت أبى الأسود الدئلى قالت له يومًا: ما أحسنُ السماءا فقال لها: أى بنية، نجومها، فقالت: إنما أتعجب من حسنها، فقال: قولى: ما أحسنَ السماءَ، وافتحى فاك ـ ثم وضع باب التعجب والاستفهام، وروى أنه سمع قارئًا يقرأ: «أن الله برىء من المشركين ورسولِه» بالجر فوضع باب العطف والنعت. اهـ.

(٢) نقل الشيخ على الصالحى عن اليوسى أن واضع الصرف على بن أبى طالب، ونقل عن التصريح الإجماع على أن واضعه معاذ بن مسلم الهراء ـ بتشديد الراء.

اللغة، وهو الخطأ فى أبنيـة الكلمات وهيئاتهـا، فوضع فى علم البناء بابًا أو بابين ـ وذلك هو أساس علم الصرف.

تأثير العجم فى علوم اللغة

ولا بأس أن نقول الآن: رأينا فى أن اختلاط الـعجم بالعرب، واتخاذهم اللسان العـربى لغة كلامهم ـ كـما كان هو السبب فى فـساد اللهجة العـربية والخوف عليها ـ فقد كان هو أيضًا مما سهل على العرب استنباط قواعد اللغة ووضع أحكامها ذلك بأن العرب حينما فطنوا إلى حاجتهم إلى النحو.

كان اليونان والسـريان قد سبقوهم إلى وضع النحـو اليونانى والسريانى، فلا أقل من أن يكون عـلماء العربيـة قد اتخذوا قـواعد ذلك النحـو مقيـاسًا يقيسون عليـه ومنوالاً يحتذون على مثاله ـ هذا إذا لم نقل: إنهم قد اقـتبسوا كثيـرًا من قواعده ونقلوا منه غالب ضـوابطه ـ ولا يسع المنصف إلا أن يقول ذلك ويعتـقده كما نعـتقده، ولولا أن إقـامة الحجـة عليه قد تصرف وجـهة بحثنا، وتخـرجنا إلى باب وراء ميـدان فسيح واسع لذكـرنا ما قـد عرفنا فى ذلك، على أن نظرة واحـدة إلى علم النحـو السـريانى تكفى فى إثـبات مـا أردناه.

وقد ذكر أوجه الخلاف فى هذه المسألة العلامة الألمانى الأستاذ انوليتمن (Professor Dr. Enno Littman) فى مـحاضـراته التى ألقـاها فى مقـارنة اللغات السامية بالجامعة المصرية سنة ١٩١١ فقال ما نصه:

ثم إنكم تعلمون أن علماء العرب أبدعوا فى علم النحو واللغة، واختلف العلماء الأوروباويون فى أصل هذا العلم، فمنهم من قال: إنه نقل من اليونان

إلى بلاد العرب، وقال آخرون: ليس كذلك، وإنما كما تنبت الشجرة فى أرضها كذلك نبت علم النحو عند العرب، وهذا هو الذى روى فى كتب العرب من زمن.

ونحن نذهب فى هذه المسألة مذهبًا وسطًا ونقول كما أثبته فى هذه السنة عالم اسمه هذا الاسم بالعربى يكون يوسف الأبيض ـ وهو أنه أبدع العرب علم النحو فى الابتداء وأنه لا يوجد فى كتاب سيبويه إلا ما اخترعه هو والذين تقدموه، ولكن لما تعلم العرب الفسلفة اليونانية من السريان فى بلاد العراق تعلموا أيضًا شيئًا من النحو وهو النحو الذى كتبه أرسطاطاليس الفيلسوف، وبرهان هذا أن تقسيم الكلم مختلف قال سيبويه: فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنًى ليس لاسم ولا فعل، وهذا تقسيم أصلى، أما الفلسفة فيقسم فيها الكلام إلى اسم وكلمة ورباط، أى الاسم هو الاسم، والكلمة هى الفعل كما يقال له فى اللغات الاوروباوية **(Verb)** والرباط هو الحرف كما يقال له فى اللغات الأوروباوية **(Conjunetion)** أى ارتباط، وهذه الكلمات اسم وكلمة ورباط ترجمت من اليونانى إلى السريانى ومن السريانى إلى العربى فسميت هكذا فى كتب الفلسفة لا فى كتب النحو، أما كلمات اسم وفعل وحرف فإنها اصطلاحات عربية أصلية ما ترجمت ولا نقلت . . . إلخ (انتهى كلامه).

ومن نظر إلى أن أئمة علوم اللغة العربية، وأرباب اليد فى وضعها وتنسيقها إنما هم على الغالب أعجام، لا يسعه أن يعرف سرا فى ذلك إلا ما بين علومنا وعلومهم من الاتصال ـ والبحث المستقصى فى ذلك له مقام غير مقامنا فلندعه الآن لنعود إلى الكلام فى تدرج علوم اللغة العربية.

علم آداب اللغة:

ويلوح لنا أن علم آداب اللغة العربية ـ إن صح أن يكون علمًا مستقلاً ـ هو أسبقها وجودًا بعد علمى النحو والصرف إذ يمكننا أن نعد من العلماء بالآداب عددًا جما فى صدر الإسلام قبل أن نعد أحدًا ممن ينسب إليه التكلم فى علم البيان أو البديع، يمكننا أن نعد فى صدر علماء الآداب ـ ولا نخاف لومًا ـ الإمام محمد بن إدريس الشافعى ومحمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة والأصمعى وكثيرًا غيرهم قبل أن نصل إلى الزمن الذى كان فيه واحد ممن ينسب إليهم علم البيان والبديع.

على أنه يعسر علينا أن نحدد على الضبط يوم نشأ علم آداب اللغة العربية، إلا أننا رجحنا أنه التالى للنحو والصرف، إذ لا يخفى أن بين النحو والصرف وبين أدبيات اللغة العربية تلازمًا بينا لا يتصور انفكاكه، ولا يسوغ لرجل أن يتصدى لاستخراج قواعد الأعراب واشتقاق الكلم دون أن يكون قد ضرب فى آداب العرب بسهم ـ ولئن كنا لا نستطيع أن نعد للسابقين كتابًا فى هذا الفن، فذلك قد يكون سببه أنهم ألفوا ولكن فاتتنا تآليفهم ـ وكم للقوم من مآثر بادت وذهبت.

بل قد يذهب الظن إلى أن علم آداب اللغة العربية أسبق وجودًا من النحو والصرف وأنه عريق فى القدم، يرجع تاريخه إلى أيام الجاهلية الأولى، إذ كان فى العرب قديمًا رواة الأشعار والأخبار وعلماء النسب، وكل هذه فروع داخلة تحت علم آداب اللغة العربية، إلا أننا لم نذهب إلى القول بذلك إذ كنا نتكلم على تدوين العلوم وظهورها فى صور علمية يدخل فيها البحث

ويستعمل فيها النظر، وذلك لم يكن إلا بعد انتشار الدولة الإسلامية وتمهد أسباب التأليف والكتابة، ولاشك فى أن ذلك لم يكن إلا بعد أن فرغ على وأبو الأسود من تدوين النحو والصرف، ووضع أساسهما، فلا جرم أنهما سابقان على علم آداب اللغة، من هذه الجهة.

علم العروض:

ثم يجىء علم العروض تاليًا لعلم آداب اللغة، وضعه الخليل بن أحمد، توفى سنة ١٧٤هـ.

* * *

اتسعت دولة الأدب العربى وأزهرت، وأنجب اللسان العربى كثيرًا من العلماء والمؤلفين والفلاسفة وأهل البلاغة فى القول والكتابة وكثر الشعراء النابغون، والخطباء المجيدون، وأقبل على اللغة العربية كثير من الطلاب والمتعلمين ونبغ فيها كثير من النابغين، فأخذت اللغة يومئذ تحيا حياة علمية مباركة فى أوائل دولة العباسيين، واتسع بحث أهل البحث فى اللسان العربى، بعد أن كان واقفًا عند حد الإعراب والبناء، وأخذ البلغاء والعلماء يتبارون فى تزيين الكلام والإجادة فيه، ويتسابقون إلى التصرف فى أساليب الكلام والتأنق فى مناحى القول، فلفتهم ذلك إلى تعرف طرق الإحسان فى الكلام وأسباب التفاوت بين الأساليب وعوامل الإجادة فى التراكيب، وآن لهم أن يبحثوا فى معنى لطف الكلام وجودته، وفى معنى فصاحته وبلاغته وفى أسباب حسنه ورقته، واشتاقت نفوسهم إلى علم يضع لهم قواعد البراعة والبلاغة والفصاحة وضوابط الإحسان فى الكلام والإجادة فيه.

وقد صادف يومئذ أن وجدت فى الدولة الإسلامية مسألة زادت عناية القوم بهذه المباحث وهيجت شوقهم إليها ولفتت نفوسهم نحوها، وهى البحث فى إعجاز القرآن من أي جهة هو.

وتلك مسألة كما ترون دينية صرفة أثارها ما كان لعلوم الكلام يومئذ من الشأن، ولكنها كانت سببًا فى توجه المسلمين علمائهم إلى بحث معنى بلاغة الكلام وفصاحته.

obeikandl.com

obeikandl.com

الباب الأول :

مجمل المذاهب فى إعجاز القرآن

وسر ارتفاع الكلام حتى يبلغ إلى درجة الإعجاز، وانحطاطه إلى الدرجة التى إذا غير عنها التحق عند البلغاء بأصوات الحيوان.

وذلك حين نشأ القول بأن إعجاز القرآن ليس كما يقول النظام ـ من جهة أن الله تعالى صرف العرب عن معارضته وأن كان ذلك ميسوراً لهم ـ ولا من جهة أن أسلوبه مخالف لأسلوب الشعر والخطب والرسائل، لا سيما فى مقاطع الآيات مثل يعلمون ويؤمنون ـ ولا من جهة أنه ليس فيه اختلاف وتناقض ـ ولا لأنه اشتمل على أخبار مغيبة صح الإخبار عنها، وصدق التنبؤ بها ـ قال عبد القاهر ما ملخصه:

وإنما أعجزتهم ـ يعنى العرب ـ من القرآن مزايا ظهرت لهم فى نظمه، وخصائص صادفوها فى لفظه، ووجدوا فيه اتساقًا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظامًا والتئامًا، وإتقانا وإحكامًا، لم يدع فى نفس بليغ منهم ـ ولو حك بيافوخه السماء ـ موضع طمع، حتى خرست الألسن عن أن تدعى وتقول، وخلدت القروم فلم تملك أن تصول. اهـ.

وحين وجد هذا الرأى الأخير فى إعجاز القرآن، ورجح عند المسلمين، وشاع أتباعه، وجب عليهم أن يبحثوا فى كنه هذه المزايا والخصائص، وسر ذلك النسق الباهر، والنظام النادر، والإحكام الذى أخرس الشقاشق، وأعجز

كل ناطق، ومعنى تلك البراعة فى البيان، وحقيقة الفصاحة والبلاغة فى القرآن ـ هنالك نشأت مباحث الفصاحة والبلاغة ووضعت بزور علم جديد يبحث فى اللغة العربية من حيث إنها كيف تحوز البلاغة، وتوجد فيها الفصاحة والبراعة؟ وكيف تستعمل تراكيبها استعمالاً سائغًا؟ وكيف تكون بداعة الأساليب وظرف التراكيب ومتانة الكلام، وحسن الاتساق والانتظام؟ وتلك المباحث هى التى صارت فيما بعد علوم البلاغة، وانقسمت إلى علم المعانى والبيان والبديع.

قال الإمام محمد بن عمر الرازى:

فائدة علوم البلاغة:

وإذا ثبت ذلك كان العلم الباحث عن حقيقة الفصاحة والكاشف عن ماهيتها، والمتفحص عن أقسامها والمستخرج لشرائطها وأحكامها، والمقرر لمعاقدها وفصولها والملخص المحرر لفروعها وأصولها، باحثا عن أشرف المطالب الدينية، وأرفع المباحث اليقينية، وهو البحث عن جهة دلالة القرآن على صدق محمد ﷺ بالتفصيل والتحصيل، ويكون صاحبه مترقيًا فى ذلك من حضيض التقليد إلى أوج التحقيق، وذلك ما لا شرف وراءه، ولا رتبة فوقه. اهـ.

على هذا النحو كانت نشأة علوم البلاغة العربية ـ ونكرر هنا ما قلناه فى علم النحو، من أن العجم الذين دخلوا فى دين الله تعالى كان لهم فضل كبير فى استنباط قواعد علوم البلاغة التى كانت موجودة فى لغتهم فاحتذوا مثالها ونسجوا على منوالها.

مبحث أن علوم البلاغة قديمة:

ينتج مما سبق أن نواة علوم البلاغة كانت البحث فى بيان معنى فصاحة الكلام، وأن أساس هذه العلوم هو القول فى سر البلاغة والبراعة والجزالة وفى حسن الكلام ورقته، ولطفه وجزالته، وقديمًا جدًا ما تكلم العلماء فى ذلك الموضوع وبحثوا فيه وتساءلوا عنه، ولا ريب عندنا فى أن عرب الجاهلية كانوا يضطرون إلى ولوج شىء من هذه المباحث حين كانوا يوازنون الشعر ويفاضلون بين أقوال الشعراء، ويقارنون بين مواضع اللطف والجودة فى التعبير وكذلك نجد فى شعر الجاهليين شيئًا من الإلمام بطرق التأنق فى العبارة والجزالة فيها حين يمدحون الكلام.

ولا شك أن مثل قوله ﷺ لجرير بن عبد الله البجلى: «يا جرير إذا قلت فأوجز، وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف» يرمى إلى غرض كبير وباب من أبواب البلاغة واسع ـ وكذلك قول قائلهم فى مدح حبيبته:

لها بشر مثل الحرير ومنطق

رخيم الحواشى لا هراً ولا نذر

يحوم حول باب الإيجاز والإطناب من علم المعانى، وهذا مجال عريض طويل لا نستطيع الإحاطة به فى هذا المقام، وفى كتب الأدب كثير منه، وحسبنا الآن أن نقرر أن العرب فى القديم بحثوا عن أسرار البلاغة، وتكلموا فى أسباب البراعة والجزالة، ضرورة أنهم كانوا يتنافسون فى الكلام ويتناقشون فى تفضيل بعضه على بعض ـ على أن هذا البحث إذ كان بابًا من أبواب علم آداب اللغة ومبحثًا من مباحث ذلك العلم فلا بد أن يكون علماء

اللغة الأولون قد خاضوا فيه وبحثوا عنه، ويبعد عندنا كل البعد أن يكون أبو عمرو بن العلاء (٧٠ - ١٥٤هـ) وهو صاحب العلم الكثير فى آداب اللغة، والتآليف الجمة، لم يبحث أصلاً فى شىء من سر البراعة والبلاغة، وكذلك يبعد عندنا كل البعد أن أبا عبيدة معمر بن المثنى (١١٠ - ٢١٠هـ) لم يعرض له البحث فى ذلك الموضع، وهو فى العلم بآداب العرب فى لغاتهم من هو، وله من التآليف ما ذكروا أنه ينيف على مائة كتاب، منها كتاب سماه: مجاز القرآن، وأبو عبيدة هذا هو الذى تكلم فى قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ فقال: إنه تعالى كلم العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس:

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى

ومسنونة زرق كأنياب أغوالِ

ومثل هذا الجواب لا يكاد يمر بعقل رجل لم يبحث فى تشبيهات العرب وتخيلاتهم.

ثم هل يتصور أن أبا حنيفة رضي الله عنه يحمل قول الله تعالى: ﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ على معنى الدنو والإفضاء إلا وقد عرف أن للعرب مجازات يستعملونها فى غير ما وضعت له، وكذلك سائر العلماء فى صدر الإسلام الذين شُغلوا باللغة أو الدين لا يكاد يعقل أن يمر بهم تدبر كتاب الله تعالى والبحث المستقصى فى أساليبه وأساليب الأحاديث النبوية وشعر العرب من غير أن يترك ذلك عندهم آثارًا كثيرة من مباحث البلاغة فى الإيجاز والإطناب والفصل والوصل والاستعارة والتشبيه... الخ.

والحاصل أن البحث فى أسرار اللغة العربية وأسباب الفصاحة قديم عريق، إلا أنه لم يبلغ أن ينشئ علم البلاغة الذى كلامنا فيه، وإنما كان بحثًا عرضيًا وشيئًا فرعيًا وآراء شتى مبعثرة لا ينظمها كتاب ولا يؤلف بينها علم.

الجاحظ وجماعة ممن كتبوا فى علوم البلاغة:

بقى هذا البحث عرضيًا منثورًا فى كتب شتى ومسائل متنوعة، ثم أخذت تنمو وتسلك سنة الظهور والشيوع حين توفرت تلك العوامل التى أشرنا إليها آنفًا، فتصدى أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب، توفى سنة ٢٥٥هـ لهذا المبحث، واستقصى فيه القول، وألف كتاب البيان والتبيين، فذكر فيه من عيوب البيان وحسناته، ما يجمع شتاتها، وينظم متفرقها وبحث طويلاً فى سر البلاغة والفصاحة، وحذا حذوه كل من قدامة الكاتب حوالى سنة ٢٥٦هـ، وكذلك أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد سنة (٢٢٢ - ٣٢١) وأبو هلال العسكرى وكثير غيرهم، وهداهم البحث إلى كثير من مسائل علم البلاغة فكتبوا فيها ونقبوا عنها، إلا أنها كانت كما قال ابن خلدون: إملاءات غير وافية فيها ـ ولم تكن مباحثهم فيها جارية مجرى البحث العلمى والنظر الفنى، بل كانوا على الغالب يتناولونها باعتبار أنها باب ذو شأن كبير من أبواب علم الأدب وفرع من فروعه الكثيرة، فلا غرو أنهم لم يعتبروا واضعى علم البيان الذى كلامنا فيه، وإن كانوا لا ريب قد بحثوا فى شىء من مباحثه ومهدوا الطريق لواضع الفن تمهيدًا، وأوضحوا معالمها وكشفوا كثيرًا من فجاجها، فأخذت تبدو أثار هذا العلم للسالكين، وتتضح مناهجه للسائرين، وتتذلل مباحثه للطالبين.

عبد القاهر الجرجاني:

حتى كان الإمام عبد القاهر الجرجاني ـ توفى سنة ٤٧١ ـ فتجرد لهذه المباحث السابقة فهذبها وضم شتاتها وجمع ما تلاءم منها ورتب قواعدها ترتيبًا، وبوبها تبويبًا، ونظم فى كتابه أسرار البلاغة سمطًا منها ثم أردفه بكتاب دلائل الإعجاز متداركًا لما أغفل ومفصلاً لما أجمل، وموضحًا لمَا أبهم، وإذ كان عبد القاهر هو أول من سلك هذا المسلك، وأول من رتب هذه القواعد تحت كتاب واحد استحق أن ينسب إليه الفضل فى وضع علم البيان واشتهر بين العلماء أن عبد القاهر هو واضع علم البيان.

تحقيق القول فى أن الجرجاني أو السكاكى هو الذى وضع فن البيان:

وقد رأينا أنه لا بد لنا أن نقف برهة عند هذا القول لنمحص الحق فيه ونحقق الصواب، إذ رأينا العلامة ابن خلدون عدل عنه إلى القول بأن الإمام أبا يعقوب يوسف بن أبى بكر محمد بن على السكاكى، المتوفى سنة ٦٢٦ هو الذى مخض زبدته، وهذب مسائله ورتب أبوابه، على خلاف ما اشتهر بين العلماء وتداوله المؤلفون من أن عبد القاهر (هو الذى نظم منثور لآلئه فى عقد التصنيف وحلى كتبه الموضوعة فيه بأحسن ترصيف فلعله لذلك نسب إليه وإن كان غيره قد تكلم قبله عليه.

نحن إذا تصفحنا ما كتبه عبد القاهر فى كتابيه: أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، وجدنا أنه وإن كان قد أحاط بغالب مباحث علم البيان وطرف كبير من أبواب علم المعانى، واستوفى القول فيها، وأحسن ترصيفها وترتيبها إلا أنه جعل الوحدة التى تربط مباحثه وتضمها وتوحد اعتبارها، أنها مباحث

متعلقة بالكلام العـربى من حيث إنه كيف يكون بليغًا فصيحًـا، وعذبًا أنيقًا؟ وكيف يعذب البيان؟ وكيف يفصح اللسـان؟ وكيف يشتمل القول على المزايا والخصـائص التى تكسـبه إعجـاب السامع وقلـبه؟ ومن أى الجهـات يكون إعجاب السامع واستجادته ـ وعلى بيان هذه الجهات وشرحها بنى عبد القاهر كتابيه: دلائل الأعجاز وأسرار البلاغة، كمـا يدل اسمهما، وكما تشهد بذلك مقـدمه المؤلف فى دلائل الإعـجاز لمن تصفـحها، وهذا آخـرها صريح فى ذلك حيث قال بعد أن أفاض فى بيان مزايا الكلام التى يتفاضل بها ويتفاوت، وبيَّن أن هذه المزية من حيز المعانى دون الألفاظ، وأنها ليست لك من حيث تسمع بأذنك بـل حيث تنظر بقلبك وتسـتعين بفكرك وتعـمل رويتك وتراجع عقلك وتستنجد فى الجملة فهمك.

وينبغى أن نأخذ الآن فى تفصيل أمر الـمزية، وبيان الجهات التى تعرض منهـا، وإنه لمرام صـعب، ومطلب عـسيـر، وأنا أنزل لك القـول فى ذلك وأدرجه شيئًا فشيئًا، وأستعين بالله تعالى عليه وأسأله التوفيق. اهـ.

على هذا الأساس بنى عـبد القاهر كتـابيه، فتناول من المبـاحث ما هداه الرأى ودله النظر على أن لهـا شأنا فى بلاغـة الكلام وفصـاحته، وقـد أطلق عليها جميعها اسم علم البـيان كما تراه فى دلائل الإعجاز، من غير أن يفرق بين ما كان من هذه المباحث راجعًا إلى مطابقـة الكلام لمقتضى المقام، وما كان منها راجعًا إلى مباحث المجاز والكناية والتشبيه، ولم يخص الأول باسم المعانى والثـانى باسم البيان ولم يشأ أن يفرق بيـن بعض المباحث وبعض إذ كانت كلها عنده متحدة الموضوع والغاية، وكلها راجعة إلى البحث فى أسرار

البلاغة والفصاحة، وعلى هذا الاعتبار رتب مباحث كتابه دلائل الإعجاز، فبدأ بالكلام فى الكناية والاستعارة والتمثيل، وهى من مباحث علم البيان، ثم دخل فى مباحث من علم المعانى كالتقديم والتأخير والفصل والوصل والقصر، ثم رجع إلى مباحث المجاز والاستعارة، وانتقل إلى بقية من علم المعانى.

نعم إن كتاب أسرار البلاغة قد اقتصر على مباحث من علم البيان خاصة، ولم يتعرض لشىء من علم المعانى ولكنا نذهب لا محالة إلى أن ذلك إنما جاء مصادفة غير مقصود منها تخصيص هذه المباحث بعلم خاص بها، ولم يلاحظ انفرادها بجهة من البحث لا تشاركها فيها مباحث علم المعانى التى وردت فى كتاب دلائل الإعجاز، وما لاحظ المؤلف يقينًا فى جمعها وتدوينها إلا أنها أبواب من مزايا الكلام وسر من أسرار البلاغة.

ولنا من كلام المؤلف فى صدر كتاب أسرار البلاغة شواهد على ذلك.

قال بعد الفراغ من الفاتحة:

واعلم أن غرضى فى هذا الكلام الذى ابتدأته، والأساس الذى وضعته أن أتوصل إلى بيان أمر المعانى كيف تتفق وتختلف، ومن أين تجتمع وتفترق، وأفضل أجناسها وأنواعها، وأتتبع خاصها ومشاعها، وأبين أحوالها فى كرم منصبها من العقل وتمكنها فى نصابه وقرب رحمها منه، أو بعدها حين تنسب عنه... وهذا غرض لا ينال على وجهه، وطلبة لا تدرك كما ينبغى إلا بعد مقدمات تقدم، وأصول تمهد، وأشياء هى كالأدوات فيه حقها أن تجمع، وضروب من القول هى كالمسافات دونه يجب أن يسار فيها بالفكر وتقطع.

وأول ذلك أولاده، وأحق بأن يستوفيه النظر ويتقصاه القول على التشبيه والتمثيل والاستعارة فإن هذه أصول كثيرة كأن جل محاسن الكلام إن لم نقل كلها متفرعة عليها، وراجعة إليها وكأنها أقطاب تدور عليها فى متصرفاتها وأقطار تحيط بها من جهاتها. اهـ كلامه.

جاء السكاكى من بعد عبد القاهر وقد تمهدت قواعد البلاغة تمهيداً وتمت بناءً وتحديداً، وانحصرت أصولها وفروعها وظهرت أسرارها وكنوزها واتضحت مباحث المعانى والبيان، وعرفت أبواب كل منهما، إلا أنها كانت مجموعة فى سمط واحد وتحت موضوع واحد، كما فى كتب عبد القاهر ومن حذا حذوه من المتقدمين، فاخترع السكاكى ترتيباً جديداً بين هذه المباحث، فجمع منها ما كان متعلقًا بمطابقة الكلام لمقتضى الحال وسماه علم المعانى، وما كان متعلقًا بإيراد المعنى الواحد فى طرق مختلفة وسماه علم البيان، وسيمر بك بعد قليل إن شاء الله تعالى توضيح لذلك المذهب وزيادة بيان فبذلك انفصلت مباحث البلاغة إلى فرقتين وانشعبت إلى علمين.

ينتج بعد هذا البيان أن عبد القاهر هو صاحب اليد الطولى، والمأثرة الجلى فى اختراع مباحث علم البيان وتهذيبها وضبطها وتدوينها، فلا جرم قال السابقون: واضع علم البيان نظراً إلى ذلك وأن السكاكى هو أول من جعل علم البيان علمًا قائمًا بذاته ومستقلا بنفسه وميز قواعده من قواعد علم المعانى فلا جرم قال ابن خلدون: إنه واضع علم البيان نظراً إلى ذلك ولكل وجهة.

ويدلكم على أن السكاكى لم يكن الا منظمًا لمباحث البيان لا مبتدعًا

لشيء منهـا، ولا واضـعًا لشـيء من قواعـدها، كلمـات شـتى ترد فى أثناء مبـاحث، مثل قوله: قال أصـحاب الفن كذا ـ ثم إننا رأيناه قـد صرح بذلك تصريحًا فى مـوضعين فى آخر علم البيـان من كتاب المفتـاح، قال فى أحد الموضعين:

«هذا ما أمكن من تقـرير كلام السلف رحمـهم الله فى هذين الأصلين، ومن ترتيب الأنواع فـيهمـا وتذييلها بمـا كان يليق بهـا وتطبيق البـعض منها بالبعض وتوفيـة كل ذلك حقه على موجب مقـتضى الصناعة، وسيحـمد ما أوردت ذوو البصـائر، وإنى أوصيهم أن أورثهم كـلامى نوع استمـاله وفاتهم ذلك فى كلام السلف إذا تصفحوه أن لا يتخذوا ذلك مغمزًا للسلف أو فضلاً لى عليهم، فغير مستبـدع فى أيما نوع فرض أن يزل عن أصحابه ما هو أشبه بذلك النوع فى بعض الأصـول أو الفروع أو التـطبيق للبـعض بالبعض مـتى كانوا المختـرعين له، وإنما يستبدع ذلك ممن زجى عـمره راتعًا فى مائدتهم تلك، ثم لم يقـو أن يتنبـه ـ وعلمـاء هذا الفن ـ وقليل مـا هم ـ كـانوا فى اختراعه واستخراج أصوله وتمهـيد قواعدها وأحكام أبوابها وفصولها، والنظر فى تفاريعها، واسـتقراء أمثلتها اللائقة بها، وتلقـطها من حيث يجب تلقطها وإتعاب الخـاطر فى التفتيش والتنـقير عن ملاقطهـا، وكد النفس والروح فى ركوب المـسالك المتوعـرة إلى الظفر بها، مع تشـعب هذا النوع إلى شعب بعضها أدق من البعض وتفننها أفانين بعضها أغمض من بعض، كما عسى أن يقرع سمـعك طرف من ذاك ـ فعلوا ما وفت به القوة البـشرية إذ ذاك ثم وقع عند فتورها منهم ما هو لازم للفتور». اهـ.

وقال فى الموضع الثانى:

«ثم مع ما لهذا العلم من الشرف الظـاهر، والفضل الباهر، لا نرى علمًا لقى من الضيم ما لقى ولا منى من سوم الخـسف بما منى، أين الذى مهد له قواعـد ورتب له شواهد وبيَّن له حدودًا يرجع إليـها، وعين له رسومًـا يعرج عليهـا، ووضع له أصولاً وقوانين، وجمع له حـججًا وبراهين وشمـر لضبط متفرقاته ذيله، واستنهض فى اسـتخلاصها من الأيدى رجله وخيله؟ علم تراه أيادى سبـا، فجزء حـوته الدبور وجزء حوته الصـبا انظر باب التحـديد ـ فإنه جزء منه ـ فى أيدى من هو؟ انظر باب الاستدلال فإنه جزء منه ـ فى أيدى من هو؟ بل تصـفح معظم أبواب أصول الـفقه، من أى علم هى؟ ومـن يتولاها؟ وتأمل فى مودعـات من مبانى الإيمان مـا ترى من تمناها سوى الذى تمناها، وعد وعد، ولكن الله جلت حكمته إذ وفق لتـحريك القلم فيه عسى أن يعطى القوس باريها بحول الله عز سلطانه وقوته، فما الحول والقوة إلا به. اهـ.

الزمخشرى:

ثم نعود إلى إتمـام القول فى تاريخ العلم من حيث انتهـيت وننبهكم إلى أن الإمام أبا القاسم محمود بن عمر الزمخشرى (سنة ٤٦٧ - ٥٣٨هـ) ينبغى أن يعد بعـد عبد القاهر فى صـدر الواضعين لفن البيـان، الذين كان لهم فى تاريخه شأن أى شأن، فقد كتب كتـابه الكشاف الذى جعله تفسيرًا لكتاب الله الكريم، وعنى فيه عناية خاصة بتطبيق القرآن على قواعد البلاغة والتنبيه على ما حـوى من أسرار الفـصاحة والبـراعة، حـتى كان كتـابه إلى اليوم عـمدة البيانيين، وإمـام العلماء والطالبين، بيد أنه لم يشتهـر اشتهار السكاكى، وإن

كان سابقًا عليه بنحو قرن من الزمان ـ ويلوح لنا أن الذى دعا إلى ذلك هو أن الزمخشرى سار فى مباحث البيان على منهج الإمام عبد القاهر وبنى على الاعتبار الذى بنى عليه، فلذلك لم يكن له من السبق ما كان لعبد القاهر، ولا من الاختراع ما كان للسكاكى، وعلى كل حال فلا ينبغى أن يهمل اسمه فى ذلك المقام.

علوم البلاغة بعد السكاكى:

أصبح علم البيان بعد الإمام السكاكى علمًا قائمًا بذاته متميز الموضوع واضح الأصول والفروع، قريب التناول سهل المأخذ، وأضحى التهذيب فيه والإصلاح ميسورًا لمن شاء من العلماء فجاء الإمام أبو عبد الله جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الطائى الجيانى (سنة ٦٠٠ - ٦٧٢هـ) بعد الإمام السكاكى بجيل من الزمان، فكتب فى هذا الفن وعد ممن لهم فيه يد، ولا يمكننا أن ندرك ما أدخل إليه من الإصلاح إذ كنا لم نقرأ له فى هذا الفن كتابًا ولكنا نذكره من المصلحين تبعًا لمن ذكره من المؤلفين.

الخطيب القزوينى وكتابا التخليص والإيضاح:

اشتهر بعد الإمام ابن مالك بالكتابة فى علم البيان الإمام القزوينى محمد ابن عبد الرحمن الخطيب، توفى سنة ٧٣٩هـ وله بين أيدينا كتابان: أولهما: تلخيص المفتاح، الذى بلغ من الشهرة عندنا ما لم يبلغه غيره من كتب الفن فتبارى فى تفسيره الشارحون وأصحاب الحواشى والتقارير، وتسابق إليه طلاب البلاغة والمحصلون، حتى كان عند الأزهريين الأول الذى لا يبارى، والآخر الذى ليس بعده غاية لمطلع، والكتاب فى ذاته قيمة علمية يمكن أن

يقام منها شبه شبهة لأنصاره ومحبيه، ألا أننا فى مقام تاريخ علم البيان لا نستطيع أن نعرف له تلك القيمة، ولا يمكننا أن ننظر إلى كتاب التلخيص باعتبارنا مؤرخين لعلم البيان ألا نظرة فاترة ليس فيها شىء من الأعجاب فما كان الكتاب الا تلخيصًا للقسم الثالث من مفتاح العلوم للسكاكى دون أن يحدث فى جوهر الفن تغييرًا يعد، وعملا يقدر، وإليك كلمة المؤلف فى صدر كتابه شهيدة بذلك قال:

وكان القسم الثالث من مفتاح العلوم الذى صنفه الفاضل العلامة أبو يعقوب يوسف السكاكى أعظم ما صنف فيه من الكتب المشهورة نفعًا لكونه أحسنها ترتيبًا، وأتمها تحريرًا، وأكثرها للأصول جمعًا، ولكن كان غير مصون عن الحشو والتطويل والتعقيد قابلاً للاختصار ومفتقرًا للإيضاح والتجريد، ألفت مختصرًا يتضمن ما فيه من القواعد، ويشتمل على ما يحتاج إليه من الأمثلة والشواهد، ولم آل جهدًا فى تحقيقه وتهذيبه وترتيبه ترتيبًا أقرب تناولا من ترتيبه، ولم أبالغ فى اختصار لفظه تقريبًا لتعاطيه، وتسهيلاً لفهمه على طالبيه، وأضفت إلى ذلك فوائد عثرت فى بعض كتب القوم عليها وزاوائد لم أظفر فى كلام أحد بالتصريح بها ولا الإشارة إليها... إلخ. اهـ.

وقد يسألنا سائل عن تلك الزوائد التى ذكر المصنف أنه لم يظفر فى كلام أحد بها؟ ونحن بحمد الله نستغنى عن أن نتحمل تبعة جواب نجيب به من تلقاء أنفسنا فقد كفانا شراح[1] الكتاب مئونة التبعة والتعب، فقال العلامة سعد الدين التفتازانى عند هذه الجملة ما نصه:

---

(١) اعترض شراح التلخيص على قوله: وزوائد ... إلخ، بأن هذه الزوائد إن كانت غير موجودة فى كلام أحد لا بطريق التصريح ولا بطريق التلويح كانت باطلة، إذ لا مستند =

(وزوائد لم أظفر) أى لم أفز (فى كلام أحد بالتصريح بها) أى بتلك الزوائد (ولا الإشارة إليها) بأن يكون كلامهم على وجه يمكن تحصيلها منه بالتبعية وإن لم يقصدوها. اهـ.

وقال ابن يعقوب: (ولا الإشارة إليها) وذلك بأن يدل عليها كلام أحدهم، ولو بمطلق الالتزام أو بالمفهوم الأضعف فتؤخذ منه، ولو لم يقصدها صاحب ذلك الكلام، ولا ينافى ذلك كون أصل مدركها قواعد هذا الفن بممارستها وقواعد فن آخر، لأن ما يدرك بممارسة القواعد ويحصل بها لا ينسب لأحد. اهـ.

وقال الإمام بهاء الدين السبكى عند قوله: وأضفت إلى ذلك فوائد . . . إلى آخره: هذا الكلام ربما يخالف ما بعده. اهـ.

= لها، على أنها إذا كانت خارجة عن كلامهم فلا معنى لإدخالها فيه مع كونها أجنبية مما قالوه، فكيف تدخل فى فنهم وتضاف إلى ما قالوه ويجرى عليها حكمه. اهـ.

ثم أشاروا إلى الجواب بما نقلناه من كلماتهم:

أما نحن فنرى أن الاعتراض المذكور واهٍ لا يستحق ما أعطاه الشراح من العناية ولا يحتاج فى الجواب عنه إلى ذلك التكلف الذى اعتسفوه، فليس ثمت أقل حرج فى أن يفتح الله من خزائن علمه لمن شاء من عباده فيزيد على ما كان للمتقدمين من علوم أو يلحق بعلومهم ما أغفلوا من القواعد التى يجب أن تدخل فى العلم وتصير جزءاً منه، على رغم صاحب الإيراد والعجب له كيف يقول ـ فكيف تدخل فى فنهم ـ كأنهم صاروا أصحاب الفن مقصوراً عليهم لا يقبل الشركة ولا يحتمل غيرهم! والذى يعرفه أن المال يقبل الاحتكار، وكل نعيم على وجه الأرض قد يتسابق الناس إلى احتكاره والاستبداد به، بيد أننا لم نسمع أن العلم مما يسوغ احتكاره ويمكن الاستبداد به وإنما العلم كالشمس ولا يمكن ألا أن يكون شركة بين الناس وكان ذلك فضلاً للعلم كبيراً.

ولئن كنا لا نرى للإيراد المذكور وجهًا فإننا قد اعتبرنا جوابهم عنه، واستندنا إليه لا لأنه يدفع الإيراد ولكن لأنه بيان للواقع وتحقيق الكلام المؤلف.

ثم إننا بعد استقراء ما جاء به المصنف فى كتاب التلخيص وتصفح ما كتبه السكاكى فى هذا الفن لم نعرف مواطن تلك الزيادة التى ذكرها المصنف اللهم إلا ما اعترض به على السكاكى فى بعض المواضع وما ذهب إليه فى تحقيق الاستعارة بالكناية ـ كما يؤخذ من كلام السعد فى المطول ـ وهى زيادة ليست فى جوهر الفن ومعدنه كما قلنا.

الكتاب الثانى مما كتبه الخطيب فى هذا الفن: كتاب الإيضاح، ولا حاجة بنا إلى بسط القول فى مقدار هذا الكتاب من الجهة التاريخية، وإنما ننقل من خطبته اقرار المؤلف لنفسه واعترافه بمقداره، قال:

أما بعد، فهذا كتاب فى علم البلاغة وتوابعها ترجمته بالإيضاح وجعلته على ترتيب مختصرى الذى سميته تلخيص المفتاح وبسطت فيه القول ليكون كالشرح له، فأوضحت مواضعه المشكلة وفصلت معانيه المجمله، وعمدت إلى ما خلا عنه المختصر مما تضمنه مفتاح العلوم وإلى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجانى ـ رحمه الله ـ فى كتابيه: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وإلى ما تيسر النظر فيه من كلام غيرهما، فاستخرجت زبدة ذلك كله، وهذبتها ورتبتها حتى استقر كل شىء منها فى محله.

وأضفت إلى ذلك مما أدى إليه فكرى ولم أجده لغيرى، فجاء بحمد الله... إلخ. اهـ.

وقوله: ما أدى إليه فكرى ... إلخ، لا نقول فيه شيئًا غير ما قلناه عند نظيره من كلام التلخيص.

ومجمل ما نريد أن نقرره عن الإمام الخطيب أنه قد خدم كتب السابقين فأحسن ـ جزاه الله ـ خدمتها، جمع شتاتها وفصل مجملاتها وهذب قواعدها وأحكم ترتيبها وتبويبها ففضله فى ذلك كبير وعمله جليل، ولكنه لم يخدم علم البيان فى نفسه فهو خادم الكتب لا خادم العلم، رحمه الله تعالى وأحسن له الجزاء.

السيوطى وكتبه:

عرف بعد الإمام الخطيب الإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطى (٨٤٩ - ٩١١هـ) ونقلنا عنه فيما كتبه عن نفسه أنه وصل فى علم البيان إلى ما لم يصل إليه ولم يقف عليه أحد من أشياخه فضلاً عمن هو دونهم، وذكر أن ذلك شأنه فى ستة علوم أخر: التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبديع، ثم قال: وأما الفقه فلا أقول فيه ذلك، بل شيخى فيه أوسع نظرًا وأطول باعًا ـ لعله يريد شيخه شيخ الإسلام علم الدين البلقينى ـ وقد راجعنا ما كتبه بنفسه عن تآليفه فى علم البيان فإذا هى:

١- نكت على التلخيص تسمى الإفصاح.

٢- عقود الجمان فى المعانى والبيان.

٣- شرح عقود الجمان.

٤- شرح أبيات تلخيص المفتاح.

٥- مختصره.

٦- نكت على حاشية المطول للفنرى.

٧- حاشية على المختصر.

٨ - البديعة.

٩ - النقاية فى أربعة عشر علمًا.

١٠- شرحها.

والذى ينبغى لنا الوقوف عليه من هذه الكتب إنما هو عقود الجمان والنقابة وشرحاهما، أما باقيها فيدل اسمه على أن المؤلف قد أراد بها خدمة كتب معينة على طريقة لا تؤثر فى الفن شيئًا، كما هو دأب الشراح عمومًا، والإمام السيوطى منهم خصوصًا، أما كتاب النقاية فقد تصفحناه مع شرحه، وقرأنا ما كان منه فى علم البيان فإذا به مختصر نافع للمحصلين ولكنه فى تاريخ الفن لا يزن قتيلا ولا قطميرًا، إلا أنه دون تلخيص الخطيب، وأما كتاب عقود الجمان فهو أرجوزة للمؤلف شرحها بنفسه ولم يجئ فيها بشىء من جوهر البيان أو ترتيبه غير ما جاء به الخطيب القزوينى وخطبة الكتاب واضحة فى ذلك لمن نظرها، ولئن قلنا: إن الخطيب قد خدم كتب السكاكى فإن ثبت «قائمة» الكتب التى ذكرها السيوطى لنفسه يضطرنا أن نقول: إنه خادم الإمام الخطيب.

وقوف علم البلاغة بعد الخطيب:

ولا عجب فقد كانت كتب الإمام الخطيب غاية ما وصل إليه الإبداع والإتقان فى علم البيان، ظن ذلك العلماء الذين جاءوا من بعده، فوقفوا بالعلم عند حده وزعموا أن الأول لم يترك شيئًا للآخر، فليس لنا إلا أن نأخذ منهم ما أعطونا من العلوم لا نأمل الزيادة عليه، ولا تحدثنا نفسنا بالتغيير فيه أو اصلاحه، وما لنا إلا أن نبحث فى كتبهم من كنوز العلوم، فما أمكن

استخلاصه منها أخـذناه وما لم يمكن تركناه لمن يجيء بعدنا، فلذلك وقفت الهمم عن تـناول صميم العلم وجـوهره وانتهت قـدرة المتأخـرين عند تلك الكتب ينظرون فى ثناياهـا، ويبحـثون فى خـفاياها، ويقلبـونها ظهـراً لبطن ويتعصرون العلم اعتصاراً من بين جـملها ومفرداتها، ذلك بما ظنوا أن العلم لا يصح إلا أن يطلب منهـا وبين دفتـيهـا ـ على ذلك وقف علم البيـان عن التقدم ألا ما كـان منه بحثًا فى كلمة لعبد القـاهر أو جملة للسكاكى أو تقدير مضاف فى كلام الخطيب أو نحو ذلك مـما تراه فى كتب السيوطى ومن جاء بعده.

السعد والسيد والعصام وغيرهما:

ولعل الإمام السيوطى لم يعد فى تاريخ علم البيـان إلا لأنه ألف فيه كتبًا مستقلة قائمة بذاتها عرفت للناس وطبع بعضها، ولولا ذلك لأهمل اسمه كما أهمل اسم كثير ممن تقدمـوه كانوا من هذا العلم فى مثل درجته أو يزيدون، ومن أشهر هؤلاء العلامـة سعد الدين التفتازانى مسـعود بن عمر، توفى سنة ٧٩١، وكان شأنه فى العـلم كبيراً، وتناول كتـاب التلخيص فأحسن خـدمته والكتابة عليه، حتى اشتهر فى ذلك بأكثر مما اشتهر الإمام السيوطى ولا يزال اسمه إلى اليوم مشهوراً وشرحـه بيننا مأثوراً، ناهيك بما اختص به شرحه من الحواشى الواسعة والتقـارير الفائضة، إلا أنه لم يذكر مع هذا فى تاريخ علم البيان، ولم يقـرن إلى أسماء أصحاب الشأن فـيه، ولا يمكننا تعليل ذلك إلا بما أشرنا إليه من قـبل، فقد بحثنا عن تآليف السعد فـى علم البيان فإذا هى كما فـى دائرة المعارف للبسـتانى شرحان مـشهوران على كتـاب التلخيص،

وشرح المفتاح للسكاكى، وإذ لم نجد له كتابا فى البيان قائمًا بذاته رجحنا أن ذلك هو السبب فى اغفاله من تاريخ العلم، وجدير بالإمام السعد أن يكون كذلك وإنما هو جدير بالمقام الأول إذا ذكر تاريخ كتاب التلخيص للخطيب أو كتاب المفتاح للسكاكى أما فى تاريخ البيان فالسعد ليس هناك والسيوطى على كل حال أجدر منه بالذكرى.

ومثل الإمام السعد فى ذلك السيد الشريف على ابن محمد الجرجانى وغيرهما.

فما كان هؤلاء ـ ولا حرج فى الحق ـ إلا خدامًا لكتب السابقين وعيالا عليهم دون أن يكونوا خدام علم البيان من حيث ذاته، والحق الذى نجنح إليه أن السيوطى أخوهم فى ذلك وهم فيه سواء، وبرغمنا أن نقول: إن علم البيان كان آخر أيامه يوم كتب الخطيب تلخيصه فاقتصر عليه من جاء بعده ووقفوا أنفسهم على ما حوى من ترتيب وقواعد لا يميلون عند قيد شعرة، ولا تطمح أنظارهم إلى ما وراءه، لذلك لا نجد بعد الخطيب القزوينى من يسند إليه فى هذا الفن إصلاح ولا يزال العلماء من لدن سعد الدين التفتازانى إلى عصرنا الحاضر واقفين عند حد الخطيب متتبعين خطاه، ولا عجب، فهذا شأن كثير من العلوم العربية والدينية.

وسبحان من جعل العلوم كالعباد تسعد وتشقى وتموت وتحيا، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير.

obeikandl.com

الباب الثانى:

تعريف كل من علمى المعانى والبيان

ترون مما قلناه فى تاريخ علم البيـان أن هذا العلم أخذ فى حياته شكلين مختلفين:

أولهما: عند نشأته الأولى التى انتهت بكتب عبد القاهر الجرجانى.

والثانى: من لدن أن كتب فيه السكاكى إلى وقتنا هذا.

فقـد كان الأوائل يتناولون قـواعد علم البـيان جزءاً لا ينفـصل من علم يبحثـون فيه عن أسباب بلاغـة الكلام وأسرار حسنه وفصاحـته، لذلك كانوا يقرنون إلى مباحث المجاز والتشبيه والكناية ـ وهى أبواب علم البيان ـ أبواب الفصـل والإيجاز والقصـر ـ وهى أبواب من علم المـعانى ـ لا يفرقـون بين المبحثين ولا يعتبرون تمايزا بينهـما وإنما هما سواء فى نظرهم، موضوعهما واحد، وهو البـحث فى خصـائص اللسان العـربى، وغايتـهمـا واحدة وهى معرفة أسرار البلاغة فى الكلام ودلائل الإعجاز فى كتاب الله الكريم.

أما الإمام السكاكى وأتباعه فقد شطروا هذه المباحث شطرين فجعلوا كل شطر منهما علمًا مستقلا سموا أحدهما المعانى والثانى البيان.

وهذه كلمة فى توضيح كل من المذهبين، والله المستعان.

فى أن الألفاظ المفردة لا تفاضل بينها فى الدلالة:

اعلم أن الألفاظ المفردة وضعت لمعان خاصة تؤدى بها وتفهم منها كما وضع الإنسان والقيام وقام ومشى ومن والى لإفادة معان خصها الواضع بها وتكفل ببيانها علم متن اللغة، فإذا ذكر لفظ مفرد ذهب منهه السامع إلى معناه المفرد واستفاده منه.

ودلالة الألفاظ المفردة على معانيها الوضعية دلالة لا تقبل التفاوت ولا يتصور بينها تمايز، فدلالة الإنسان على الحيوان الناطق تساوى دلالة العرجوف ـ كعصفور ـ على الناقة إذا كانت شديدة ضخمة، والمصقع ـ كمنبر ـ على البليغ الفصيح ـ لا فرق بينها فى الدلالة بعد أن يكون السامع عارفًا بوضعها لمعانيها.

فالألفاظ المفردة من أجل ذلك لا تتفاوت مقاديرها فى البلاغة ولا يقال فى لفظ منها: إنه أبلغ فى معناه من لفظ آخر «وهل يقع فى وهم وإن جهد أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة، وتلك غريبة وحشية، أو أن تكون حروف هذه أخف وامتزاجها أحسن، ومما يكد اللسان أبعد» «فقد اتضح إذن اتضاحًا لا يدع للشك مجالاً، أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة، ولا من حيث هى كلم مفردة» راجع دلائل الإعجاز فصل فى تحقيق القول على البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة . . . إلخ.

ثم إن المعانى المفردة ليست فائدة السامع بها تامة وإنما يكتسب منها صورًا تقوم بذهنه منثورة مبعثرة ليس لها نظام ولا بينها ارتباط، فلذلك كانت الألفاظ المفردة خارجة عن مباحث البلاغة وعن مرمى نظر البليغ .

المركبات التامة هى التى تتفاضل مراتبها:

فإذا انضمت كلمة إلى كلمة وركبت معها وامتزجت بها على وجه يفيد اتصالاً بين معنييهما تحصل به للسامع فائدة تامة يحسن السكوت عليها، فذلك هو الكلام التام الذى يتفاوت مقداره وتتباين رتبه ويتسابق البلغاء فى احراز جهات الحسن فيه والبراعة ويتبارون فى إكسابه أسباب الفصاحة والبلاغة، وما كان بحث العلماء قديمًا إلا فى تعرف تلك الأسباب التى تجعل التركيب بليغًا مستحسنًا، وفصيحًا مستعذبًا فبذلوا فى ذلك مجهودهم وكرروا فيه نظرهم وكم كان لهم فى ذلك أخذ ورد ومحو وإثبات وآراء متخالفة ومذاهب متعادية.

المذاهب فى جهات حسن الكلام والمذهب الأول منها فى أن الحسن تارة يرجع إلى اللفظ وتارة يرجع إلى المعنى وقول مسلم بن قتيبة فى بيانه:

فمنهم من كان يزعم أن الحُسن يعرض للكلام تارة من جهة ألفاظه، إذا هى سلمت من التعقيد والتنافر، وسهلت على اللسان وحلى وقعها من الآذان، وتارة من جهة معناه إذا كان حكمة مستظرفة أو أدبًا مستملحًا أو مثلاً مستحسنًا أو نحو ذلك، ولعل من أنصار هذا المذهب الإمام أبا محمد عبد الله ابن مسلم بن قتيبة الدينورى، توفى سنة ٢٧٦هـ، حيث ذكر فى مقدمة كتاب الشعر والشعراء أن من الشعر ما يكون حسنه راجعًا إلى لفظه ومعناه، وما يرجع إلى لفظه فقط، وإلى معناه فقط، فمن الأول قول الفرزدق فى مدح زين العابدين على:

فى كفه خيزران ريحه عبق

من كف أروع فى عرنينه شممُ

يغضى حياءً ويغضى من مهابته

فـلا يكلم إلا حـيـن يبـتـسمُ

ومن الثانى قوله:

ولمـا قضـينا من مِنًى كل حاجـة

ومـسح بالأركـان من هو مـاسحُ

وشدت على حدب المهارى رحالنا

ولم ينظر الـغـادى الذى هو رائحُ

أخـذنـا بأطراف الأحـاديث بـيننا

وسـالت بأعناق المـطى الأباطحُ

قال: وهذه الألفاظ أحسن شىء مطالع ومخارج ومقاطع، فإذا نظرت إلى ما تحتهـا وجدته ولما قضينا أيام منى واستلمنا الأركـان وعالينا إبلنا الأنضاء ومضى الناس لا ينظر من غدى الرائح ابتدأنا فى الحديث وسارت المطى فى الأبطح.

ومن الثالث قوله:

ما عـتب المرء الكريم كنفـسه

والمرء يصلحه الجليس الصالحُ

فقد جعل الحـسن والبراعة فى الكلام والفصاحة فيـه والبلاغة تعرض له تارة لأن معناه شريف، وتارة لأن لفظه سهل منسجم، فهذا أحد المذاهب فى أسرار البلاغة وحسن الكلام.

المذهب الثانى فى رجوع الحسن إلى اللفظ فقط

وعبارة محتملة فى ذلك لبشر بن المعتمر:

وهنالك مذهب ثان فى معنى فصاحة الكلام وبلاغته أشار إليه عبد القاهر فى كتبه، وهو أن الحسن إنما يعرض للكلام من جهة سهولة لفظه، وحسن انسجامه ولطف رونقه وجودة ديباجته ورقة حاشيته، وهذا ما يشاكل طريقة أهل البديع وأنصاره مما يعمل عليها المحدثون وينسجون على منوالها، كما فى شعر أبى الفتح البستى ومقامات الزمخشرى والحريرى وشعر المتنبى وأبى تمام فى بعض الأحيان، وأمثالهما، وقرأنا فى كلمة لبشر بن المعتمر رئيس طائفة البشرية من المعتزلة فى أوائل القرن الثالث ما قد يشير إلى هذا المذهب وينحو نحوه، قال: وكم فى ثلاث منازل فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقًا عذبًا وفخمًا سهلا ويكون معناه ظاهرًا مكشوفًا، أما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وأما عند العامة إن كنت للعامة أردت، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معانى الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معانى العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال، وكذلك اللفظ العامى والخاصى، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك على أن تفهم العامة معانى الخاصة وتكسيوها الألفاظ الواسطة التى لا تلطف عن الدهماء ولا تجفو عن الأكفاء فأنت البليغ التام . . . إلخ إلخ.

وسواء صح أن هذا الكلام يجرى على رأى البديعيين أو لم يصح، فإن هذا المذهب وجد ولقى أنصارًا ولا نزال نرى من أنصاره إلى اليوم.

جاء الإمام عبد القاهر وقد شاع فى زمنه هذا الرأى وكثر أنصاره فتجرد لرده وإبطاله، وأطنب فى ذلك ما شاءت له الحجة الصادعة والبديهة المطاوعه والبلاغة الرائعة، ففاضت جوانب كتابه دلائل الإعجاز بالقول على هذا المذهب ونقده وتزييفه، وكذلك لم يرض عبد القاهر بالمذهب الأول فأشار بلطف إلى أبطاله وأشار فى أثناء كلامه على الأبيات السابقة:

* ولما قضينا من منى كل حاجة * . . . إلخ.

إلى بطلان رأى ابن قتيبة فى أن الحسن عرض لها من قبل ألفاظها وسلاستها «راجع فاتحة أسرار البلاغة».

المذهب الثالث لعبد القاهر أن الحسن فى الكلام من جهة النظم:

وإذ قد بطل هذان الرأيان بقى مذهب ثالث هو الذى أيده عبد القاهر وتصدى فى كتبه للنضال دونه وتفصيل القول فيه فقال ما معناه: إن الحسن الذى زعمتم أنه عرض للألفاظ من جهة سلاستها وسلامتها من التنافر والغرابة ونحوهما ليس هو ذلك الحسن الذى تتطلع إليه أنظار البلغاء وتتفاوت فيه أقدار القائلين وتتبارى جياد الشعراء والمتكلمين، وكذلك الحسن فى الكلام من جهة اشتماله على معنًى شريف ومثل ظريف ليس هو الحسن الذى ننشده ونجعل الكلام فيه ونشد الرحال فى طلبه والبحث عنه.

وإنما يمدح الكلام ويحسن ويبلغ ويفصح وتتفاوت رتبه وتختلف مقاماته حتى يكون منه المعجز وغير المعجز بحسن نظمه ودقة ترتيبه ومراعاة مطابقته لمقتضى الحال.

ذلك أن لنا فى كل جملة تقال ألفاظًا كانت قبل التركيب مفردة ثم

تلاحقت وتضامت حتى كـان منها هيئة مركبة وجـملة واحدة تدل على معنى وضعى لها من إثبات شيء لشيء أو نفيه عنه، سـواء كانت الجملة حقيقة أو مجازًا، خبرًا أو إنشاء، اسمية أو فعلية، ذات متعلقات من مفعول أو حال أو تمييز أو لا متعلق لها، فالجملة على كل حال حين النطق بها دالة على معنى وضعت للدلالة عليه وذلك هو الذى نسمـيه معنًى أول، ونقول: إن كل كلام عربى صحيـح التركيب دال عليه ومؤد إياه لا تتفـاوت فى ذلك جملة وجملة ولا يمتاز فيه قول عـن قول، ضرورة أن دلالة الجمل على ذلك المعنى دلالة وضعـية اقـتضاهـا تركيب الكلام، ولا يمكن أن يؤدى المـعنى بدونه، فكان مثلها فى ذلك مثل دلالة الألفاظ المفردة على معـانيها الوضعية، وقد عرفت هنالك أنه لا يعقل فيهـا امتياز ولا تفاضل ـ فقولنا مثـلاً: اشتمل ثوب فلان على الكرم، وقولنا: مـحمد مـجتهد، وضـرب زيد عمرًا، وركـبت الفرس مسرجًا، ولا تضرب خادمك، وأكرم ضـيفك، كل ذلك كلام يتساوى طرفاه فى إفادة معناه الأول، الذى هو إفادة كرم فلان، واجـتهاد محمد . . . إلخ ـ وهذا هو المعنـى الأول، وهو الذى نسميـه أيضًا أصل المـعنى، وتقول: إن الكلام فى أفادته له منزل منزلة أصوات الحـيوانات وفى الدرجة السفلى التى لا انحطاط بعدهـا إذ كان خاليـا من الصنعة ـ ومشـتملاً عـلى أقل ما يجب الاشتـمال عليه ليكون مـفيدًا لم يلاحظ فى ترتـيبه والنطق به أكـثر من تأدية أصل المـعنى، ومن أجل ذلك قـالوا: إنه لما صـدر من المـتكلم على هذه الحيثية كان كأصوات الحيوانات تصدر عن محالها بحسب ما يتفق.

ثم إننا إذا أعدنا إلى الجمل نظرة ثانية، وتأملنا فى كل كـلام مفيد يصدر

من قائل فإننا نجد لكل كلمة وقعت فى أثناء الجملة أحوالاً عرضت لها، وصفات قامت بها لهذه الأحوال والصفات العارضة معان خاصة زائدة على أصل المعنى يبحث علم النحو عن هذه الأحوال، ويتعرض للكلام عليها ككون اللفظ نكرة أو معرفة بالألف واللام أو بكونه ضميراً أو علماً أو اسم إشارة، وككون اللفظ مذكوراً أو محذوفًا، وكونه صفة أو موصوفًا، وكونه معطوفًا عليه أو معطوفًا، وكون خبر المبتدأ اسمًا أو فعلاً مقيداً بمتعلق أو غير مقيد ... إلخ، وكذلك تعرض للجمل أحوال وصفات كالتى تعرض للمفردات فتكون مقصورة وغير مقصورة، مفصولة أو موصولة، خبراً أو إنشاء، موجزة أو مطنبة، مقيدة بالشرط ونحوه أو غير مقيدة، فهذه كلها أحوال يبحث عنها فى علم النحو، قد عرضت للألفاظ بعد أن دلت على معانيها الأولى، ولكل حال من هذه الأحوال معنًى تدل عليه ويفهم منها، كما يدل تنكير الاسم إذا كان مسنداً إليه على تعظيم مدلوله أو تحقيره نحو قوله:

له حاجب عن كل أمر يشينه

وليس له عن طالب العرف حاجب

فقد أعطاك التنكير فى حاجب الأول معنى التعظيم والتكبير، كأنه قيل: إن حاجبه عن الشين والذام حاجب عظيم كبير، وعلى العكس من ذلك حاجب الثانى فمعناه ليس له عن العفاة أقل حاجب.

وكما يدل تعريف الاسم باللام على معنى الاستغراق فى نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ ... إلخ.

وكما يدل العطف بالفاء على معنى الترتيب من غير تراخ بخلاف العطف بثم.

وكمثا أن تقييد الجملة بالشرط، إذا كان حرف التعليق إذا يدل على أن الجزاء محقق أنه يقع ويكون، بخلاف ما إذا كان حرف التعليق أن، كما ترى فى الفرق بين الشرطين فى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ فهذه كلها وجوه عرضت للألفاظ حين تركيبها، ولكل وجه منها معنى خاص يفهم منه، كما رأيت تلك الوجوه هى ما يسمى عندهم معانى النحو، أى المعانى التى يبحث عنها فى علم النحو، وهى الأحوال العارضة للكلم والجمل باعتبار تركيب بعضها مع بعض، دون حال إفرادها كالتعريف والتنكير والعطف وتركه . . . إلخ، وهذه الأحوال أيضًا تسمى الخصوصيات ومعانيها التى تفهم منها، وتكون هذه الأحوال والفروق فى الكلام دالة عليها تسمى عندهم بالمعنى الثانى، لأن دلالة الكلام عليها تالية لدلالته على المعنى الأول الوضعى الذى عرفته.

إذا عرفت هذا فالبلاغة فى الكلام واستحقاقه المدح والثناء يكونان بأن تلاحظ فيه هذه الوجوه والفروق ويعطى الكلام منها بقدر ما يحتاجه المقام وما تمس إليه الحاجة، فتجىء بالتنكير أو التأكيد أو الفصل أو الإطناب . . . إلخ، حيث يكون المقام محتاجًا إلى أن تدل على المعنى الذى يفهم من هذه الأحوال فبقدر ما تلاحظ هذه الفروق ويصاب بها وضع الصحة يكون حظ الكلام من الحسن ومبلغه من الجودة والشرف.

ذلك هو معنى ما يقول عبد القاهر من أن الذى يمدح به الكلام ويذم

ويسمو وينحط والذى يتواصفه البلغاء وتتفاضل مراتب البلاغة من أجله هو النظم.

قال: واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التى رسمت لك فلا تخل بشىء منها، وذلك أنَّا لا نعلم شيئًا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر فى وجوه كل باب وفروقه، فينظر فى الخبر إلى الوجوه التى نراها فى قولك زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق، وزيد هو منطلق، وفى الشرط والجزاء إلى الوجوه التى تراها فى قولك: إن تخرج أخرج، وإن خرجتَ خرجتُ، وإن تخرج فأنا خارج، وأنا خارج إن خرجت، وأنا إن خرجت خارج، وفى الحال إلى الوجوه التى تراها فى قولك: جاءنى زيد مسرعًا، وجاءنى يسرع، وجاءنى وهو مسرع، أو وهو يسرع، وجاءنى وقد أسرع، فيعرف لكل من من ذلك موضعه، ويجىء به حيث ينبغى له، وينظر فى الحروف التى تشترك فى معنًى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية فى ذلك المعنى فيضع كلا من ذلك فى خاص معناه، نحو أن يجىء بـ «ما» فى نفى الحال، وبـ «لا» إذا أراد نفى الاستقبال، وبـ «أن» فيما يترجح أن يكون وأن لا يكون، وبـ «إذا» فيما علم أنه كائن، وينظر فى الجمل التى تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء، وموضع الفاء من موضع ثم، وموضع أو من موضع أم، وموضع لكن من موضع بل، ويتصرف فى

التعـريف والتنكير والتـقديم والتـأخير فى الكلام كله وفى الـحذف والتكرار والإضمار والإظهار فـيضع كلا من ذلك مكانه ويستعـمله على الصحة وعلى ما ينبغى له. اهـ.

وحاصله أن تراعى فى هذه الأحوال العـارضة للفظ ومعانيها الـموضوعة هى لها، وتختار منها ما يكون مناسبًا للحال ومقتضى للمقام.

نبذ من كلام عبد القاهر فيها توضيح وأمثلة:

وإليك نبذا من مواضع شتى فى دلائل الإعجاز، تزيد مذهب عبد القاهر وضوحًا عندك ـ وفيـها بعدُ تمرين للقارئ وشحذ لبـصيرته ـ قال: وليس من أحد يخالف فى نحو قول الفرزدق:

وما مثله فى الناس إلا مـملكا[1]

أبو أمـــه حى أبـوه يقـــاربه

وقول المتنبى:

وكذا اسم أغطيـة العيون جفـونها

من أنهـا عـمل السيـوف عـوامل

وقوله:

الطيب أنت إذا أصـابك طيـبـه[2]

والماء أنـت إذا اغتسلت الـغاسل

وقوله:

---

(١) أصله وما مثله حى يقاربه فى الناس إلا مملكا ـ أبو أمه أبوه.

(٢) (أنت) مبتدأ (طيبه) خبر.

obeikandl.com

اعمد إلى قول البحترى:

بلونـا ضـرائـب من قـد نرى
فـما أن نرى لضـريب ضريبـا
هو المـرء أبدت له الحـادثا
ت عـزمًا وشـيكا ورأيا صليبـا
تنـقل فـى خلـقى سـؤدد
سمـاحًا مـرجى وبأسًا مـهيـبا
فكالسـيف إن جئـتـه صارخـا
وكالبـحر إن جـئتـه مستـتيـبا

فإذا رأيتهـا قد راقتك، وكثرت عندك، ووجدت لهـا اهتزازًا فى نفسك، فعد فانظر فى السبب واسـتقص فى النظر فإنك تعلم ضرورة أنه ليس إلا أنه قدم وأخـر وعرَّف ونكَّر وحذف وأضـمر وأعاد وكرر، وتـوخى على الجملة وجهًـا من الوجوه التى يقتـضيهـا علم النحو فأصـاب فى ذلك كله، ولطف موضع صوابه وأتى مأتى يوجب الفضيلة، أفلا ترى أن أول شىء يروقك منها قوله: «هو المرء أبدت له الحادثات» ثم قوله: (تنقل فى خلقى سؤدد) بتنكير السؤدد وإضافـة الخلقين إليه، ثم قـوله (فكالسيف) وعطفه بالفـاء مع حذفه المبـتدأ لأن المـعنى لا محـالة فهو كـالسيف، ثم تكريره الكـاف فى قوله: (وكالبحر) ثم إن قـرن إلى كل واحد من التشبيهين شـرطًا جوابه فيه، ثم إن أخرج من كل واحد من الشرطين حالاً على مثال ما أخرج من الآخر، وذلك قوله (صارخًا) هناك و (مستتيبًا) هنا.

وإذ قد عرفت أن مدار أمر النظم على معانى النحو وعلى الوجوه والفروق التى من شأنها أن تكون فيه، فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها ونهاية لا تجد لها ازدياداً بعدها، ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها فى أنفسها ومن حيث هى على الإطلاق ولكن تعرض بحسب المعانى والأغراض التى يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع بعض، تفسير هذا أنه ليس إذا راقك التنكير فى سؤدد من قوله: «تنقل فى خلقى سؤدد».

وفى «دهر» من قول إبراهيم بن العباس:

فلو أذنبا دهر وأنكر صاحبٌ

وسلط أعداء وغاب نصيرُ

فإنه لا يجب أن يروقك أبداً وفى كل شىء، ولا إذا استحسنت لفظ ما لم يسم فاعله فى قوله: (وأنكر صاحب) فإنه ينبغى أن لا تراه فى مكان إلا أعطية مثل استحسانك هنا، بل ليس من فضل ومزية إلا بحسب الموضع وبحسب المعنى الذى تريد والغرض الذى تؤم.

ومن بديع النظم قول الأول، وتمثل به أبو بكر الصديق رضوان الله عليه، حين أتاه كتاب خالد بالفتح فى هزيمة الأعاجم:

تمنانا ليلقانا بقوم

تخال بياض لأمهم السرايا

فقد لاقيتنا فرأيت حربا

عوانا تمنع الشيخ الشرابا

انظر إلى موضع الفاء فى قوله:

* فقد لاقيتنا فرأيت حربا *

ومثل قول العباس بن الأحنف:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا

ثم القفول فقد جئنا خراسانا

انظر إلى موضع الفاء، وتم قبلها.

ومثل قول ابن الدمينة:

أبينى أفى يمنى يديك جعلتنى

فأفرح أم صيرتنى فى شمالك

أبيت كأنى بين شقين من عصى

حذار الردى أو خشية من ذيالك

تعاللت كى أشجى وما بك علة

تريدين قتلى قد ظفرت بذلك

انظر إلى الفصل والاستئناف فى قوله:

* تريدين قتلى قد ظفرت بذلك *

ومثل قول أبى حفص الشطرنجى، وقاله على لسان علية، أخت الرشيد، وقد كان الرشيد عتب عليها:

لو كان يمنع حسن الفعل صاحبه

من أن يكون له ذنب إلى أحدِ

كانت علية أبرى الناس كلهم

من أن تكافأ بسوء آخر الأبدِ

ما أعجبَ الشيءَ ترجوه فتُحرمه
قد كنتُ أحسب أنى قد ملأت يدى

انظر إلى قوله (قد كنت أحسب) وإلى مكان هذا الاستئناف.

ومثل قول ابن البواب:

أتيتك عائذاً لك منـ
ـك لما ضاقت الحيل
وصيرتى هواك وبى
لحينى يضرب المثل
فإن سلمت لكم نفسى
فما لاقيته جلل
وإن قتل الهوى رجلاً
فإنى ذلك الرجل

انظر إلى الإشارة والتعريف فى قوله:

* فإنى ذلك الرجل *

انتهى من دلائل الاعجاز بتصرف.

وقد أطال عبد القاهر فى بيان ما سماه بالنظم، وقال عنه: إنه توخى معانى النحو ... إلخ، وجعل كتابه دلائل الاعجار فى بيان هذه المعانى وتوضيح تلك الوجوه والفروق التى تعرض فى الكلام فتكون سبب المزية له، والارتفاع فى درجته.

علم البلاغة على مذهب عبد القاهر:

وكما ذهب عبد القاهر إلى أن النظم سر من أسرار البلاغة ووجه من وجوه حسن الكلام وجودته كذلك هو يرى أن الكلام قد يعرض له الحسن بسبب آخر غير النظم، كما إذا اشتمل على استعارة مستحسنة أو تشبيه مستظرف أو كناية جميلة، فكل هذه أبواب تكسب الكلام لطفًا وتكسوه عجابًا.

قال فى أسرار البلاغة: (وكأن جل محاسن الكلام، إن لم نقل: كلها، متفرعة عنها وراجعة إليها، وكأنها أقطاب تدور عليها المعانى فى متصرفاتها وأقطار تحيط بها من جهاتها). اهـ. وقد جعل عبد القاهر كتابه أسرار البلاغة فى بيان تلك الأسباب غير النظم التى تكسب الكلام قدرًا وخطرًا، كما كان كتابه دلائل الإعجاز فى بيان أمر النظم خاصة دون الاستعارة وأخواتها إلا قليلاً ـ والحاصل أن عبد القاهر كان لا يرى إلا علما واحدًا، غاية الباحث فيه أن يتعرف مزايا الكلام البليغ وأسرار بلاغته، فكل ما كان بحثًا فى مزية من المزايا وسر من الأسرار يكون داخلاً تحت ذلك القن، ومندرجًا فى موضوعه.

وعلى ذلك بحث عبد القاهر فى أبواب النظم والاستعارة والمجاز على أنها أبواب من ذلك العلم الواحد فى اسمه وغايته وموضوعه لا فرق فى رأيه بين مباحث النظم التى صارت بعد علم المعانى وبين مباحث المجاز التى صارت علم البيان ـ وقد سبق تفصيل ذلك.

وقد رأينا عبد القاهر يسمى ذلك العلم تارة علم الخطابة ونقد الشعر

ـ كما كان يسميه السابقون ـ وورد فى دلائل الإعجاز تسميته بعلم الفصاحة والبيان، وكانت مباحث هذا العلم عند الإمام الجرجانى داخلة فى بابين: باب التشبيه والمجاز والكناية، وباب النظم، أو مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فذانك هما البابان الأهمان فى علم البلاغة لم يذكر غيرهما فى كتابيه، إلا ما ورد عرضًا من مباحث الحشو والتجنيس والسجع ونحوها.

الفصاحة والبلاغة عند عبد القاهر:

وننبه هنا إلى أن عبد القاهر كما لم يفرق بين المعانى والبيان كذلك لم يرد فى كلامه إشارة إلى الفرق بين فصاحة الكلام وبلاغته، بل يذهب كلامه مذهب الترادف بينهما وانكار أن يكون بينهما تفاوت ما، كما أشار إلى ذلك فى أثناء فصل من دلائل الإعجاز فى تحقيق القول فى البلاغة والفصاحة.

طريقة السكاكى فى علم البلاغة:

الإمام السكاكى نظر إلى مباحث علم البلاغة نظرة فلسفية جمعت طرفيها وأحاطت بها وقسمها تقسيمًا حاصرًا وحددها حتى تمتاز عن غيرها امتيازًا تامًا، وذلك أنه وجد المتقدمين قد تركوا مباحث هذا العلم مفتحة الأبواب عامة الموضوع إذ كان كل بحث يتعلق بأسرار بلاغة الكلام وحسنه يجوز أن يضاف إلى هذا الفن ويزاد عليه، وكان لكل رجل ظن الكفاءة بنفسه أن يلحق بهذا العلم ما يدله النظر على أنه داخل فى موضعه، وكأن السكاكى خاف على علم البلاغة من ذلك الإطلاق الذى يجعل الحرية فيه فوضى يومًا من الأيام.

فنظر إلى هذا العلم نظرة فلسفية تحدد ما بينه وبين سائر علوم الأدب من

النسبة والارتباط وتميزه عنها امتيازا تامّا وتحصر أبوابه ومباحثه حصراً عقليّا حتى لا يبقى محل للخوف عليه من دعى دخيل.

قال السكاكى فى أول كتاب مفتاح العلوم: وجعلت هذا الكتاب ثلاثة أقسام: القسم الأول فى علم الصرف، القسم الثانى فى علم النحو، القسم الثالث فى علمى المعانى والبيان، والذى اقتضى عندى هذا هو أن الغرض الأقدم من علم الأدب لما كان هو الاحتراز عن الخطأ فى كلام العرب وأردت أن أحصل هذا الغرض وأنت تعلم أن يحصل الممكن لك لا يتأتى بدون معرفة جهات التحصيل واستعمالها لا جرم أنّا حاولنا أن نتلو عليك فى الأربعة الأنواع مذيلة بأنواع أخر مما لا بد من معرفته فى غرضك لتقف عليه، ثم الاستعمال بيدك، وإنما أغنت هذه لأن مثارات الخطأ إذا تصفحتها ثلاثة: المفرد والتأليف وكون المركب مطابقًا لما يجب أن يتكلم له ـ وهذه الأنواع بعد علم اللغة هى المرجوع إليها فى كفاية ذلك ما لم يتخط إلى النظم، فعلما الصرف والنحو يرجع إليهما فى المفرد والتأليف، ويرجع إلى علمى المعانى والبيان فى الأخير. اهـ.

فأنت تراه كيف احتال فى تحديد نسبة المعانى والبيان إلى سائر علوم اللسان العربى حتى لم يبق محل اشتباه فى ذلك، ولا لبس بين علم منها وعلم، وذلك أن علم النحو والصرف يحترز بهما عن الخطأ فى تركيب الكلام، من حيث إعرابه وبناؤه، وعن الخطأ فى تصريف المفردات، وليس بعد تصحيح المفردات وإعراب الجمل إلا مراعاة مطابقة الكلام لمقتضى المقام، وتلك وظيفة علم البلاغة الذى ينتظم المعانى والبيان.

وبقى عليه بعد ذلك، القول فى تحديد نسبة كل من المعانى والبيان إلى بعضهما.

وقد قال السكاكى فى بيان ذلك: اعلم أن علم المعانى هو تتبع خواص تراكيب الكلام فى الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ فى تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره، وأما علم البيان فهو معرفة إيراد المعنى فى طرق مختلفة بالزيادة فى وضوح الدلالة عليه، وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ فى مطابقة الكلام لتمام المراد منه ولما كان علم البيان شعبة من علم المعانى لا تنفصل عنه إلا بزيادة اعتبار جرى منه مجرى المركب من المفرد لا جرم آثرنا تأخيره. اهـ.

وتوضيح طريق السكاكى فى ذلك أنه اعتبر المباحث التى ترجع إلى مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وهى التى تسمى فى مصطلح عبد القاهر بمباحث النظم علما واحداً سماه علم المعانى.

قيل فى سبب اختيار هذا الاسم: إنه يبحث فيه عن الكيفيات والخصوصيات التى تعتبر فى المعانى أولا وبالذات وفى الألفاظ ثانيًا وبالعرض فنهبوا على أن هذا العلم يتعلق بالمعانى وكيفياتها لا بالألفاظ نفسها على ما سبق إلى بعض الأوهام. اهـ.

ومما طن على أذنى الآن أن يقال: إنه إنما سمى علم المعانى لأنه باحث عن معانى النحو على ما سبق بيانه، ولعل ذلك مما قرأناه فى كلام غيرنا، إلا أننا لا نتذكر موضعه أو لعله مما هدانا الله تعالى.

علم البيان واسمه:

أما علم البيان فهو العلم الذى يبحث فيه عن أبواب التشبيه والمجاز والكناية من حيث إنها طرق مختلفة لتأدية المعنى الواحد تارة بطريق واضحة لا شىء فيها من الخفاء وتارة بطريق فيها خفاء قليل أو كثير مراعى فى ذلك ما يتقضيه المقام، وما يتطلبه ظرف الكلام فخطاب الذكى يناسبه من الاعتبار وخفاء المجاز أو الكناية أو دقة التشبيه وتفصيله ما لا يناسبه خطاب الغبى من الوضوح والظهور، فلذلك أفردت هذه المباحث من حيث إنها طرق مختلفة وجعلت علمًا واحدًا هو الذى سماه السكاكى (علم البيان).

وإنما سمى هذا العلم بيانًا[1] إما لأنه باحث عن الطرق المختلفة التى تستعمل لأجل وضوح المعنى وبيانه للسامع، من قولهم بان الشىء بيانًا اتضح وظهر، وأما أن يكون مأخوذًا من البيان بمعنى الإفصاح مع ذكاء، وإنما كان هذا العلم بيانًا بذلك المعنى لأنه هو الغاية المقصودة منه والثمرة الناتجة عنه). اهـ. هذا وكما أن مباحث المجاز والتشبيه والكناية تمتاز عن علم المعانى، من حيث هى طرق مختلفة فإنها تدخل فى علم المعانى باعتبار أنها تطابق مقتضى الحال أو لا تطابقه كما سبقت الإشارة إلى ذلك قريبًا، فبذلك يكون البحث عنها شعبة من مباحث المعانى لا تنفصل عنها إلا بزيادة اعتبار وهو اعتبارها طرقًا مختلفة لذلك.

قال السكاكى: إنه جرى منه مجرى المركب من المفرد.

---

(١) جاء فى حواشى المطول نقلا عن السعد أنه سمى بيانًا لأن علم البيان يتعلق بإظهار تمام المراد، وبيانه بالطرق المختلفة بحيث لا يحتوى على تعقيد فيه. اهـ. أما الوجهان اللذان ذكرناهما فى الكتاب فقد ذكرناهما فى الأصل غير معزوين لأحد، ثم راجعنا ما بأيدينا من الكتب فلم نجد من ذكرهما ولعلهما من عندنا، والله أعلم.

الفصاحة والبلاغة عند السكاكى:

على هذا النحو ميز السكاكى بين علم المعانى والبيان وفصل مباحثهما وقد وقع له فى أثناء ذلك كلام فى معنى فصاحة الكلام وبلاغته ذهب فيه مذهب التفريق بين المعنيين، وجاء لكل منهما بتفصيلات وتنويعات لا تتفق مع مذهب عبد القاهر، ولم نر غيره يوافقه عليها، ولم نعرف له مستنداً فيها، على أننا لسنا فى حاجة إلى إنكارها عليه أو موافقته ما دام موضوعنا لا يضطرنا إلى هذا البحث، ولا فائدة لنا منه الآن.

بعد أن تم للسكاكى ما أراده من بيان نسبة علوم البلاغة إلى غيرها، ومن تحديد العلاقة بين علمى المعانى والبيان، بقى عليه أن يحدد أبواب علم البيان تحديداً منطقيّا ويحصرها ـ على طريقته ـ حصراً عقليّا وذلك هو غرضه الأهم ومقصده الأعلى حتى لا يبقى محل للزيادة عليها أو الاختصار منها ـ وسيجىء بيان رأيه فى ذلك عند الكلام على أبواب على البيان.

والآن نستعين الله تعالى لنقول كلمة فى مذهب السكاكى الذى اختاره فى معنى البيان، ونفاضل بين رأيه ورأى عبد القاهر، ولعل الله تعالى يوفق إلى السداد.

بحث فى جعل إيراد المعنى الواحد ... إلخ، جهة الوحدة بين أبواب علم البيان:

إننا لا ندرك وجهًا للقول بأن علم البيان باحث عن إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فإننا نعتقد أن هذا المعنى لم يكن يجول بأذهان المتقدمين الذين وضعوا قواعد الفن، وهذبوها وضبطوها، من قبل أن يكون السكاكى ويكون تحقيقه هذا، وما كان عبد القاهر والذين قبله يفهمون فى المجاز

والكناية والتشبيه أنها طرق من الكلام مختلفة فى تأدية المعنى الواحد، ولئن فهموا ذلك وأدركوه فما هو بشىء ذى بال يدعو إلى البحث عنها، والتآليف فيها، ومعاناة استخراج قواعده ـ وضوابطها وشواهدها ولكنهم حين توجهوا إلى البحث فى هذه الأبواب كانوا لا غير باحثين عن أسرار بلاغة الكلام ودلائل إعجاز القرآن وليس عن طريق التأدية المختلفة كما يرى السكاكى، رحمه الله تعالى.

وفضل طريقة المتقدمين على ما سلك السكاكى أن علوم البلاغة كانت عندهم قابل للزيادة مستعدة للماء إذ كان حاصلها البحث عن كل ما يكسب الكلام قدرًا وشرفًا وعن أسرار حسنه وبلاغته فعرف السابقون من هذه المباحث ما عرفوا واهتدوا إلى معرفة المجاز والكناية والتشبيه والإيجاز والإطناب . . . إلخ، ولم يعرف لهم هذه الأبواب دفعة واحدة، ولكنها كانت أسرارًا تكشفها لهم الأيام واحدًا بعد واحد، وكنوزًا تنفتح عليهم حينًا بعد حين، كلما توغلوا فى البحث وأمعنوا فى النظر، ويشبه ذلك طريقتهم فى استخراج علم البديع إذ كانوا يعرفون النوع البديعى فى الجيل بعد الجيل كلما كرروا النظر ودققوا البحث، ولو بقى البحث على هذه الطريقة وتتابعت الأنظار كذلك بعد الشيخ عبد القاهر لكشفنا من أسرار بلاغة اللسان العربى شيئًا كثيرًا غير الذى كشفوا ولفتحنا من كنوز هذه اللغة الشريفة الغنية أضعاف ما فتحوا ما دمنا نعتقد أن كمال هذه اللغة لا ينفد وأن حلاوة القرآن فى بلاغته لا تبرح تتجدد وأنك كلما ردت اللغة نظرًا وبحثًا زادتك من كنوزها وأسرارها، كما قيل:

يزيدك وجـــهـــــه حـــسنًا

إذا مـــــــــا زدته نـظـرا

أما السكاكى فـقد حاول أن يقف بعلوم البلاغة عنـد حدها الذى وجّدها عنده فدعاه ذلك إلى أن يتكلف فى معنى الفصـاحة والبلاغة ويضع لهما من الضوابط ما يضع ذلك ليـتيسر له أن يحصـر كلا من المعانى والبيـان حصرًا عقليًا لا يبـقى بعده أمل فى الزيادة، وإن دعاه ذلك إلى ما دعـاه، رحمه الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الأمور.

obeikandl.com

وأدل عليه من لفظ آخر فى ذلك المعنى بعد أن يثبت الوضع لهما وعلم السامع بهما.

مثلاً ـ السبع والأسد والهزبر والليث والغضنفر ـ كلها ألفاظ وضعت بإزاء النوع المعين المعروف من الحيوانات الوحشية، فإذا خوطب من يعرف ذلك بأى واحد من هذه الأسماء فهم منه صورة ذلك الحيوان، لا يمتاز اسم منها عن اسم ولا يكون أوضح دلالة من أخيه ولا أخفى.

قال سعد الدين التفتازانى ـ مثلاً إذا قلنا خده يشبه الورد، فالسامع إن كان عالمًا بوضع المفردات والهيئة التركيبية امتنع أن يكون كلام آخر يؤدى هذا المعنى بطريق المطابقة دلالة أوضح أو أخفى ـ لأنه إذا أقيم مقام كل لفظ ما يرادفه فالسامع إن علم الوضع فلا تفاوت فى الفهم والا لم يتحقق الفهم. اهـ.

وإنما يمكن أن يكون للمعنى الواحد صور مختلفة من الكلام بعضها أوضح دلالة عليه من بعض إذا استعمل الكلام فى غير معناه الوضعى بأن استعمل مرادًا به جزء معناه أو لازم من لوازمه فهنالك يوجد التفاوت ويمكن الاختلاف.

مثلاً ـ الإنسان لفظ معناه الوضعى هذا النوع من الحيوان الذى خصه الله تعالى بمزية العقل، فإذا استعمل لفظ الإنسان مراد به الحيوان مطلقًا الذى هو جزء معناه الوضعى كان لفظ الإنسان أوضح فى ذلك مما إذا استعمل مرادًا به الجسم مطلقًا، الذى هو جزء معنى الحيوان، وكذلك القمر معناه الأصلى ذلك الكوكب المنير ليلاً، فإذا أطلق القمر على السماء مثلاً، لأنها لازم له

لا يتخلف عنه كان أوضح دلالة عليها من دلالته على لازم السماء كزرقة اللون مثلاً ـ وهلم جرا.

إذا تم هذا فعلم البيان يبحث فيه عن إيراد المعنى الواحد بأساليب يتأتى بينها تفاوت بالوضوح والخفاء، ويمكن إيراد المعنى الواحد فيها بطرق مختلفة.

وإيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة لا يتأتى فى الدلالة الوضعية كما عرفت، وإنما يتأتى بالدلالة العقلية ـ التى يكون الكلام فيها مراد به جزء معناه الأصلى أو لازمه ـ فيكون علم البيان إنما يبحث فيه عن طرق الدلالة العقلية دون الدلالة الوضعية، التى لا يتصور اختلاف فيها.

وينقسم اللفظ باعتبار دلالته العقلية إلى نوعين فقط: المجاز والكناية ـ لما سيمر بك بعد أن شاء الله تعالى.

تكلفهم لإدخال التشبيه فى مباحث الفن:

ولما كانت مباحث التشبيه على هذا النحو الذى ذكروا خارجة عن مباحث البيان الأصلية إذ لا يتأتى فيها الإيراد المذكور، لما أن دلالتها وضعية ـ إلا على قول ضعيف لم يشتهر ـ التجأوا إلى الحيلة فى ذكره فى مباحث البيان، فقالوا: لما كان من المجاز ما يبتنى على التشبيه، تعين التعرض له وبذلك انحصر البيان فى ثلاثة أبواب: التشبيه والمجاز والكناية.

ولعل الإمام السكاكى ـ يرحمه الله تعالى ـ هو أول من ذهب إلى هذا المذهب فى وضع علم البيان وتبويبه حين حاول أن يميز بين علوم البلاغة ويميز مباحثها (رحمه الله) إلى علمين، سمى أولهما المعانى والثانى البيان.

والإنصاف يتقاضانا أن نرفض هذا المذهب ونختار منهج السابقين الأولين الذى يجعل التشبيه عمدة فى الفن وركنًا من أمهات أركانه لما ستسمع قريبًا فى مزاياه.

وسواء ترجح عندنا هذا الطريق أو ذاك فلا شك أننا الآن لا نستطيع أن نتناول البحث فى أكثر من ثلاثة الأبواب التى هى مباحث علم البيان ولا نريد أن نخوض فى غيرها: التشبيه، المجاز، الكناية.

obeikandl.com

الباب الرابع:

التشـــبيه

إجمال القول فى مزايا التشبيه:

التـشبـيه بـاب من أبواب الكلام واسع وطريق لإفـادة المعنى فى صـور مختلفة، يجد القائل فيها متصرفًـا للقول ومضطربًا فسيحًا، والتشبيه من أهم أساليب البـلاغة وأجمع طرق التـعبيـر لأسرار الحسن ومعـانى البراعه وفـيه تتفـاوت أقدار القائلـين حتى يكون منهم المعـجز الذى لا يبـارى، والساقط الذى ينظر إليه، ولذلك كان المعول الأكبر فـى علم البيان على باب التشبيه، ولا غرو أن يكون له ذلك الشأن، إذ كان له من المزايا والدقائق ما له.

وقد ذكر الإمام عبد القاهر فى شرحها واستنباطها ما اهتدى إليه، ونرجو أن نجد بعـد فرصة للقول فى مـزاياه، إن شاء الله[1] وما كـان تأثير التشبـيه وعظيم قدره وجليل خطره خاصة بلغة العـرب ولكنها سارية فى سائر اللغات حتى كان من الحكمـاء من يبرع فى قومه ويفضل ببراعـته فى فن خاص من التشبيه وهو التشبيه التـمثيلى الذى هو أبلغ موعظة، وأملك لقلوب السامعين لا سيما فى المواعظ الدينية والأخلاق، والله جل شأنه يضرب الأمثال للناس

(١) لم تكن لنا تلك الفرصة التى رجوناها ـ وقد ذكر عبـد القاهر فى كتاب أسرار البلاغة من وجوه العبر وأسرار الحـسن فى التمثيل وأسباب تأثيره فى نفوس السامـعين طرقًا صالحًا يمكن أن يقال على قـياسه فى سـائر أبواب التشبـيه غير التـمثيل، فليـراجع باب مواقع التمثيل وتأثيره هناك.

وأنبياؤه الكرام، الذين اشتهر منهم فى ذلك الباب، داود عليه وعليهم السلام.

وكذلك شأن العرب، قد ينبغ الرجل فيهم إذا أحكم فن التشبيه، وهم يجلون لذلك أمثال ابن الرومى وابن المعتز وغيرهما.

تعريف التشبيه وأركانه:

تعريف التشبيه: اشتهر أن التشبيه هو الدلالة على أن شيئين يشتركان فى أمر واحد يعمهما، ويوجد فيهما فلا بد فى كل تشبيه من مُشَبَّهٍ، ومُشَبَّهٍ به، ويسميان طرفين، ومن أمر يشتركان فيه وهو وجه الشبه ـ قالوا: ولا بد مما يدل على التشبيه، وهو الأداة، فتلك أربعة أشياء هى أركان التشبيه التى يتم بها.

أقسام التشبيه باعتبار طرفيه:

هذا وقد يكون طرفا التشبيه حسيين، كما إذا شبه صوت جميل بنغمات الموسيقى، أو صوت جهورى منكر بصوت حمار، وكما إذا شبه طعم فاكهة بفاكهة أخرى أو رائحتها برائحتها وكما يشبه وجه جميل ببدر أو شمس، وقد يكونان عقليين لا يصل إلى إدراكهما الحس، كما فى تشبيه الموت بالنوم والعلم بالحياة والجوع بالكفر، وقد يكون المشبه حسيًا والمشبه به عقليًا كالعطر إذا شبه بخلق كريم.

وقد يكون المشبه عقليًا والمشبه به حسيا على عكس ما قبله كما يشبه العدل بالقسطاس والمنية بالسبع.

فتلك أقسام أربعة للتشبيه باعتبار طرفيه.

وكذلك ينقسم بهذا الاعتبار إلى مـا يكون الطرفان فيه مفردين لا تركيب فيهما وإلـى ما يكونان فيه مركبين، وإلى ما يكون طرفـه الأول مفرداً والثانى مركبًا، وإلى ما يكون المشبه مركبًا والمشبه به مفرداً عكس ما قبله، فإذا أنت نظرت مثـلا إلى حلقة من حلقات الـعلم، ورأيت الطلبة فيـها ملتفـين حول أستاذهم وهو يمدهم بالعلم الذى يحيى نفوسهم وينمى ملكاتهم فشبهت هذه الهيئـة التى رأيتها بنبت فى بستان حـول عين من الماء تفيض عليـه من مائها الذى هو مادة حـياتها كـان ذلك من تشبيـه المركب بالمـركب، وكذلك إذا قلت: إن الطلاب فى التفافـهم حول الأستاذ كأنهم كواكب أحـاطت بالقمر، كنت فى ذلك تشبه مركبًا بمركب، ومن ذلك بيت بشار:

كـأن مثـار النقع فـوق رءوسنا

وأسـيافنا ليل تـهاوى كـواكبـه

وكذلك قول ابن المعتز:

كـأنه وكـأن الكأس فى فـمـه

هلال أول شهر غـاب فى شفق

وقال:

بيـاض فى جـوانبـه احـمـرار

كما احمرت من الخجل الخدود

ومن تشبيه المركب بالمفرد قوله:

يا صـاحبى تقـصـيا نظريكمـا

تريا وجوه الأرض كيف تصور

تريا نهـارًا مشـمسًـا قد شـابه

زهر الربى فكأنمـا هو مـقمـر

شابه: خالطه.

ومن تشبيه المفرد بالمركب قوله:

وكـأن مـحـمـر الشـقـيـ

ـق إذا تصـوب أو تصـعـد

أعـلام يـاقـوت نشـر

ن على رمـاح مـن زبرجـد

وقد يكون التشبيه ليس بين شيئين ولكن بين أشياء متعددة كما فعل امرؤ القيس فى تشبيه قلوب الطير الرطبة وقلوبها اليابسة بالعناب والحشف البالى، وكما يشبه المحبوب بالقمـر وغصن البان، وكما يقال فى الحاجب: إنه يشبه الهلال والقوس، وحرف النون . . . إلخ، ويكون التشبيـه حينئذ متعدداً، فإن كان التعدد فى المشـبه به وحده سمى تشبيه الجمع، وإن تعـدد المشبه سمى تشبيه الـتسوية، وإن تعدد طرفاه معًـا، فإن ذكرت المشبهـات معا ثم ذكرت المشبهـات بها فتشبيه ملفـوف، وإن ذكر مع كل مشبه ما شبـه به فمفروق، قال[1]:

النشـر مـسك والوجـوه دنا

نيـر وأطراف الأكـف عنم

(١) النشر ـ الرائحة الطيبة ـ العنم ـ شجر لين الأغصان.

أقسام التشبيه باعتبار وجهه:

هذا، واعلم أن الذى ينبنى عليه التشبيه بين الشيئين والجهة التى يشتركان فيها، يجوز أن تكون حسية كما فى أبيات، رواها صاحب مصارع العشاق، عن قيس بن الملوح المجنون قالها وقد وقعت فى شركه ظبية فنظر إلى وجهها مليا ثم أطلقها فمرت، وأنشأ يقول:

اذهبى فى كلاءة الرحمن
أنت منى فى ذمة وأمانِ
ترهبينى والجيد منك كليلى
والحشا والبغام والعينانِ
لا تخافى بأن تفاجى بسوء
مال تغنى الحمام فى الأغصانِ

ويجوز أن تكون عقلية ـ كما يشبه العلم بالحياة.

وكذلك يجوز أن تكون أمراً واحداً، أو مركبا أو متعدداً، فإذا كان مركبًا سمى ـ التمثيل ـ قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ شبه الذين نزلت عليهم التوراة ثم لم يعملوا بها ولم ينتفعوا بما فيها بالحمار يحمل الأسفار ويكد فى حملها، ومبنى التشبيه أن فى كل حرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع تحمل التعب فيه والكد ـ وذلك الوجه مركب من متعدد كما ترى، وقال ﷺ «مثل الذى يعلم الخير ولا يعمل به مثل السراج الذى يضىء للناس ويحرق نفسه» بنى التشبيه على الهيئة التى تكون من نفع الغير وهدايته مع الإضرار بالنفس.

وقال الشاعر:

فأصبحت من ليـلى الغداة كقابض

على الماء خـانته فـروج الأصابع

بنى التشـبيه علـى ما يكون فى كل من الطرفين، مـن طلب ما لا يكون والتمسك بما لا يتمسك به، وكذلك قوله:

كمـا أبرقت قوما عـطاشًا غمـامة

فلمـا رأوها أقـشـعـت وتجلت

أخذه من اتصال ابتداء مطمع بانتهاء مؤيس.

ووجه الشبه فى هذا كله منتـزع من متعدد فيكون التشبيه تمـثيليًا بخلافه فى نحو تـشبيـه الخد بالورد فى الحـمرة والرجل بالأسـد، فى الشجـاعة، والسفر بالمـيزان، فى أنه يقدر الأخلاق فى قولهم: السفـر ميزان الأخلاق، والتفكير بالفخ فى أنه يقرب المفكر من العـمل كما أن الفخ يدنيه من الصيد فى قولهم الفكرة فخ العمل ـ ومثال وجه الشبه المتعدد قوله:

مـهـفـهف وجنتـاه

كـالخـمـر لـونًا وطعـمـا

وإذا ذكر وجه الشـبه فى التشبـيه قيل له: التـشبيه المفـصل، وإذا حذف فالمجمل.

وبقيت للتشـبيه أقسام أخر يذكرونهـا وليس من حقنا أن نخوض الآن فى استيفائها إذ كنا على شريطة أن نتوخى الفائدة مع الاختصار.

وقد كان بودنا لو تيسر لنا البحث فى سر هذه التـقسيمات التى جاءوا بها فى باب التشبـيه وجاءوا بمثلها فى باب الاستـعارة فإن استخراج أقـسام شتى

لشيء واحد وتنويعه إلى أنـواع وأجناس وتجزيئه إلى أجزاء أمر مـيسور لكل ناظر سهل على كل من شـاء، ولو أننا ذهبنا نستخرج للتـشبيه أقسـامًا كالتى استخرجوها لكان فى مقدورنا ـ وفى مقدور كل أحد ـ أن نبلغ بالأقسام مئات وألوفًا، فلنا أن نقسمه باعتبار وجهه مثلاً إلى ما يكون وجه الشبه فيه ذاتيًا من ذاتيات المشبه أو المشبه به، أو همـا، أو يكون عرضيًا كذلك، والعرضى إما أن يكون لازمـا أو يكون عرضـيًا كذلك، والـعرضى إما أن يـكون لازمًا أو متخلفًا والمتخلف أما سريع الزوال أو بطيئه ـ فينتج لك من ذلك خمسة عشر قسمًا، فإن شئت ضعفتها إلى ضعفين أو أضعاف، وإن شئت اختصرتها.

وعلى هذا الأسلوب يمكن أن يقسم التـشبيه باعتـبار كل ركن من أركانه وكذلك يمكن القول فيـه باعتبار أداته ـ ويمكن أن يعتبر فى التشـبيه شى آخر غير أركانه الأربعة يلحقه به انقسامات وتنوعات.

وكذلك القول فى الاستعـارة وتقسيمها، إذ يتأتى اختـراع مبدأ غير الذى اخترعوه لإحداث أقسام فوق ما أحدثوا.

وما دامت مبانى التقسيم عندهم أمورًا انتـزاعيه وشئونا اعتبارية، فإن لكل قادر شاء أن يعتبـر وينتزع ويقبل اعتباره وانتزاعه، كما قـبلنا منهم ما اعتبروه مبدأ لأقسامهم وأنواعهم.

اللهم إلا أن يجعل الحكم فى ذلك للفـائدة فلا يقبل من التقـسيم إلا ما كان ذا حظ من الفائدة والنفع وما كان داخلاً تحت حدودهما، وأما ما يجيء من ذلك حبا فـى التقسيم ورغبـة فى الإطناب فلا ينبغى قبـوله، ولو جاء به المتقدمون.

لذلك كان من دأبنا أن لا نلـتفت إلى تلك الأقسـام ولا نذكرها إلا على طريق ضرب المثل، غيـر قاصدين إلى استيعابها حـتى تتبين لنا تلك الفائدة التى توخوها فى تقسيماتهم.

وقد كـان يقع لنا فى كلام عبـد القاهر ما قـد ينفع فى ذلك لمحـة بعد لمحة، وإشارة بعد إشارة، ولـكن البحث طويل عريض يحتاج إلى برهة منَ الزمن كافية فيه.

ولم يبق لى من الوقت ما يسع ذلك فقد قرب موعد رحلتى ـ إن شاء الله تعالى ـ إلى بلاد الإنجليز.

والله أسأل أن يبارك لى فى السفر والإقامة ويكتب لى الغنم والسلامة.

وإذا قدر لنا أن نعـود إلى الاشتغـال بهذا الفن، رجونا أن نتـمم ما بدأنا وإلا كان أمره إلى غيرنا، وإلى الله عاقبة الأمور.

obeikandl.com

الباب الخامس :

الحقيقة والمجاز

لألفاظ اللغة العربية معان معينة جعلت الألفاظ لتكون مستعملة فيها ودالة عليها ووضعت بإزائهـا وخاصة بها فكلمات القيـام والضرب والجد والإنسان والفرس ونحوها جعلت أول الأمر لتستعمل فى معانيها التى عينها لها الوضع وخصها بـها وكذلك الحكم فى كل ألفاظ اللغة ـ فإنهـا قد وضعت من أول أمرها مختصه كل لفظ منهـا بمعنى معين ـ هو الذى تدل عليه الكلمة ـ وهو الذى يقال له إنه معناها اللغوى.

وقد يعرض للفظ من هذه الألفاظ الموضوعة لمعانيها اللغوية أن تتفق أمة من الناس على استعماله استعمـالاً مطرداً فى معنًى جديد غير المعنى اللغوى الأول ووضعه ليكون دالا عليه ومـستعملاً فيه عندهـم وذلك كما اتفق علماء النحو على أن يكون لفظ المضاف مستعملاً فى ما يقابل إليه وهو معنًى جديد للفظ المـضاف غـير ما كـان له فى وضعـه الأول اللغوى، فـإنه وضع أولا ليستعمل فى الرجل إذا حوصر فى الحرب قال:

وكرى إذا نادى المضاف محنبا

كسـيد الغضى نبـهته المـتورد

المحنب الفـرس أعوج الساقين ـ السـيد الذئب ـ الغضا شـجر ـ والورد والمتورد ـ كلاهما يكونان الأسد ويكونان الفرس بين الكميت والأشقر.

وكالربا وضع فى أول أمره بإزاء الزيادة والنمو، قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ ثم اصطلح علماء الفقه وأهل الشرع على أن يستعملوه خاصة فى معنى فضل المال من غير عوض عند مبادلة مال بمال، وهو معنًى غير الأول اللغوى كما ترى، وكذلك لفظ المجاز فى الأصل جعل بإزاء الطريق كما يقال للرجل إنه مجاز لحاجتك بمعنى أنه طريق إليها، ثم وضعه علماء البيان لمعنى الكلمة إذا استعملت استعمالاً خاصًا، كما سيأتى إن شاء الله.

والحاصل أن الألفاظ العربية بعد أن يكون لها معنى لغوى قد يعرض لها أن توضع لمعنى آخر غير معناها اللغوى يتفق على وضعها له طائفة من الناس، وسواء فى ذلك أن يكون الواضعون للكلمة بإزاء معناها الجديد والمصطلحون على أن تستعمل فيه علماء الشرع خاصة كما مر فى الرباء أو علماء البيان كما فى لفظ المجاز أو علماء النحو أو علماء الطب أو أهل بلد من البلاد أو جماعة ما من الجماعات، وذلك كما يطلق الأزهريون لفظ العالم على من مضى عليه فى طلب العلم بالأزهر اثنتا عشرة سنة ثم أدى الامتحان ونجح فيه، فذلك معنًى اصطلاحى ثان غير المعنى الأول اللغوى للفظ العالم الذى هو الإنسان إذا قامت به صفة العلم، وإن كان من غير المسلمين أو من غير الأزهريين.

تعريف الحقيقة وأقسامها:

فكل كلمة استعملت فى معناها الذى وضعت لتستعمل فيه وتدل عليه سواء كان وضعًا لغويًا أو عرفيًا يقال لها: الحقيقة، ولا بد لتكون الكلمة

حقيقة من أن تكون مستعملة فيما وضعت له، عند أهل الاصطلاح الذى يجرى عليه المتكلم ويتبعه فى خطابه، فإذا كان المتكلم فقيهًا يستعمل مصطلح الفقهاء وعرفهم ويجرى على سنتهم فلا تكون كلمة الصلاة حقيقة إلا إذا استعملها فى معناها الذى وضعت له فى اصطلاح الفقهاء وعرفهم الذى هو تلك الأعمال المعينة المعروفة، فإذا استعملها فى المعنى الذى وضعت له فى اللغة أو فى اصطلاح آخر غير اصطلاح الفقهاء لم تكن الكلمة حقيقة حينئذ، وعلى هذا القياس إذا كان المتكلم يجرى على وضع اللغة فى كلامه، ثم استعمل الربا فى معناه الشرعى السابق لم يكن لفظ الربا حقيقة حينئذ ضرورة أنه لم يستعمله فيما وضع له فى مصطلح كلامه وطريقة خطابه، وإن صح أن يقال: إنه مستعمل فيما وضع له فى اصطلاح آخر، غير الذى يتبعه ويجرى عليه.

تعريف عبد القاهر للحقيقة:

فذلك قولهم فى الحقيقة: إنها الكلمة المستعملة فيما وضعت له فى اصطلاح التخاطب، وعليه قول عبد القاهر: كل كلمة أريد بها ما وقعت له فى وضع واضع وقوعًا لا يستند فيه إلى غيره فهى حقيقة.

ومعنى قوله ـ وقوعًا لا يستند فيه إلى غيره ـ أن اللفظ يدل على ما أريد به من غير احتياج إلى أن يلاحظ التباس وارتباط بينه وبين معنى آخر، فدلالة أسد على سبع لا تحتاج إلى ملاحظة أصل أداه إليه بخلاف دلالته على رجل شجاع، إذ لا بد هنا من ملاحظة أصل ـ وهو السبع ـ يؤدى إلى ذلك المعنى لما بينهما من ملابسة.

ثم إذا كان لفظ الحقيقة مستعملا فيما وضع له لغة فهو حقيقة لغوية، وإن كان مستعملاً فيما وضع له فى العرف فهو حقيقة عرفية ـ عامة، إن كان أهل الاصطلاح غير معينين ولا محصورين فى طائفة بعينها كالدابة تعارف الناس استعمالها فى ذى الأربع، وقد كان فى الوضع الأول لكل ما دب ومشى، وعرفية خاصة شرعية إن كان واضعها الشرع، ونحوية إن كان واضعها علماء النحو، وحسابية إن كان علماء الحساب... وهلم جرا.

تعريف المجاز وأقسامه:

والمجاز الكلمة التى لم تستعمل فيما وضعت له فى اصطلاح التخاطب، بل فى معنى غيره يكون بسببٍ من المعنى الأول الموضوع له اللفظ، وذا علاقة به وارتباط يجوز به أن يؤخذ لفظ أحدهما للآخر ويستعمل فيه، ولا بد لصحة التجوز باللفظ من معناه الوضعى إلى معناه المجازى من أن ينصب المتكلم دليلاً على أنه لم يرد المعنى الوضعى، وما يكون بين المعنيين من الملابسة والاتصال يسمى علاقة، وذلك الدليل يسمى قرينة.

وتجرى فى المجاز أقسام الحقيقة السابقة، فيكون مجازًا لغويًا إن كان المتكلم به جاريًا على مصطلح اللغويين، ومجازًا شرعيًا أو عرفيًا عامًا، أو نحويا، على قياس ما سبق.

علاقات المجاز:

هذا وقد كان كافيًا فى معرفة العلاقة أنها ما يكون بين المعنى المتجوز عنه والمتجوز إليه من الاتصال الذى ينبنى عليه صحة أن يؤخذ اللفظ منه إليه، ويستعمل فيه، فإن الاتصال بين شىء وشىء من المعانى الواضحة التى

لا عناء فى إدراكها وتمـييزها والذوق السليم كافٍ وحده فى معـرفة ما يكون من الاتصال مجـوزاً للانتقال وما لا يكون، ولا سيمـا إذا قرع سمع الطالب شىء من استعمالات العرب فى هذا الباب، وبعض الشواهد الواردة فى تلك كما فـعل الإمام عبد القاهر والإمـام السكاكى حين يذكران علاقـات المجاز فإنهما ما زادا على ضرب الأمثال لهـا وإسماع الشواهد عليها دون أن يتوغلا فى البحث عـما إذا كانت محـصورة أو غيـر محصورة ودون أن يفـسرا هذا المعنى الواضح عند كل ذى مسكة، معنى الاتصال والارتباط بين الشيئين بما هو وأخـفى عند السـامع وأشد إشكالاً ومن ذا وأبيـك لا يفهم ارتبـاط شىء بشىء واتصاله به وعلقتـه به ثم يفهم الإطلاق والتقييد والعـموم والخصوص والفرق بينها . . . إلخ إلخ، مما وضعه المتأخرون فى العلم من المؤلفين ثم زعموا بعد ذلك أنهم يحصرون أنواع العلاقات ففتحوا بذلك بابًا على أنفسهم من النزاع والاضطراب، فبـينا يحقق بعضهم أنهـا تسع عشرين علاقـة يحقق الثـانى أنها دون ذلك ثم يقـول الثالث: إنهـا فوق ذلك ـ ولو أنصف الـقوم لكفاهم أن يذكروا أنواع العلاقات التى ذكروها على سبـيل التمثيل والتفصيل لا على سـبيل التحـديد والحصـر، ومن ادعى أنه يحيط بأنـواع الاتصالات والارتباطات بين الأشياء إحاطة جامعة مـانعة فهو إما فيلسوف يؤيده الكشف الروحانى أو متـفلسف يقف حركة العلم عن النماء ويسـرع به إلى الهرم بعد الفـتاء، وذلك هو الذى أصـاب علم البـيـان، وقد كـان غنيًـا عن الفلسفـة والتفلسف ومحتاجًا إلى ترك الاعتساف به والتكلف.

ولا غنية لنا عن أن نورد ما ذكره القـوم من أنواع العلاقات حتى لا يظن النقص بكتـابنا فى إغـفـالها ولـكنا لا نذكرهـا على طريق دعـوى انحصـار

العلاقات فيها وعدم شذوذ شيء عنها، وإنما غرضنا ما يرد فيها من الأمثلة والشواهد فحسب، ثم قد يكون فى ذكر الأنواع توضيح لمعنى العلاقة بوجه ما.

فقد يكون اللفظ موضوعًا ليستعمل فى معنًى من المعانى فينتقل من ذلك المعنى إلى معنًى آخر يكون المعنى الأول سببًا له ومؤثرًا فيه كما وضع لفظ الغيث للمطر النازل من السماء فيستعمل فى النبات لأن الغيث سبب فى طلوع النبات، قالوا: رعينا الغيث، كما قالوا رعينا السماء، وهذه **علاقة السببية**، لأن المعنى الأول سبب للمعنى الثانى، وقد يكون المعنى الأول مسببًا وناشئًا عن شيء آخر فينقل اللفظ إلى ذلك المعنى الآخر ويستعمل فيه **لعلاقة المسببية** كما يقال: أمطرت السماء نباتًا، نقل النبات من معناه الوضعى إلى المطر لأن النبات مسبب عنه، وكذلك الوغى، أصل معناه اختلاط الأصوات، ثم استعمل فى الحرب، لأن اختلاط الأصوات يكون مسببًا وناشئًا عن الحرب فى العادة.

وقد تكون العلاقة بين المعنى الثانى والأول، أن الأول كلٌّ للثانى، ومشتمل عليه وعلى غيره وهى **علاقة الكلية**، كما قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم﴾ على معنى أناملهم، لأنها هى التى تجعل فى الأذن والأصابع مشتملة على الأنامل وكلٌّ لها.

وقد يكون الأول جزءًا للثانى وبعضًا منه كما تقال العين على الجاسوس، والرقبة على الإنسان، وهذه **علاقة الجزئية**.

الخامسة: علاقة الآلية، بأن يكون المعنى الثانى آلة للمعنى الوضعى

وواسطة فيه، قال تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ أى ذكرًا حسنًا، والمناسبة بين الذكر الحسن واللسان أن اللسان آلة الذكر والكلام.

السادسة: الملزومية، بمعنى أن يكون المنقول عنه ملزومًا للمعنى المنقول إليه أى يلزم عند وجوده وجود الثانى، كما تستعمل الشمس فى الضوء، إذ هى ملزومة له يجب عند وجودها وجوده.

السابعة: اللازمية، عكس ما قبلها كما فى الشمس تطلق على ضوئها.

الثامنة: الإطلاق، بأن يكون الأول مجردًا عما قيد به الثانى، كما استعملت الرقبة فى الرقبة المؤمنة إذ كان المعنى الحقيقى للرقبة مطلقًا عن قيد الإيمان المراد فى المعنى المجازى، قال تعالى فى كفارة الظهار: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ قال الشافعية: المراد رقبة مؤمنة، فلا تجزئ الكافرة، والعلاقة: الإطلاق، والحنفية يخالفونهم فى ذلك.

التاسعة: التقييد، عكس الإطلاق، ومنه الشفة فى الأصل شفة الإنسان خاصة، استعملت للفرس بدل الجحفلة فى قوله:

فبتنا جلوسًا لدى مهرنا
ننزع عن شفتيه الصُّفارا

«الصُّفار بالضم القراد وما يبقى فى أصول أسنان الدابة من تبن ونحوه».

العاشرة: العموم، أى أن يكون المعنى الحقيقى شاملاً لأفراد منها المعنى المجازى ـ قال المفسرون: إن قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أريد به أنهم يحسدون محمدًا ﷺ، فقد أطلق لفظ الناس، وهو عام، لمحمد وغيره، وأريد به خاص.

الحادية عشرة: الخصوص، كما إذا استعمل لفظ الخاص كمحمد فى الإنسان عمومًا.

الثانية عشرة: أن يستعمل الدال على صفة فيما ليست الصفة قائمة به الآن، اعتبارًا لأن الوصف قام به سابقًا، قال تعالى: ﴿**وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ**﴾ استعمل اليتامى فى البالغين، ولا يتم بعد بلوغ، كما فى الحديث، وإنما اليتيم طفل مات أبوه، وذلك اعتبار ما كان.

الثالثة عشرة: أن يستعمل الوصف فى الذات التى سيقوم بها ذلك الوصف، قال تعالى: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ**﴾ أطلق الميت عليه ﷺ وعلى أصحابه لأنهم سيئولون إلى الموت، ومنه: ﴿**إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا**﴾ وإنما يعصر العنب ليؤخذ منه الخمر، فاستعمال الخمر فى العنب مجاز علاقته الأول.

الرابعة عشرة: أن يستعمل اسم الحال فى محله، وهى علاقة الحالية نحو: ﴿**فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ أى فى الجنة خالدون.

الخامسة عشرة: أن يستعمل اسم المحل فى حاله نحو: سال الميزاب، أى ماؤه ﴿**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ**﴾ أى أهلها.

السادسة عشرة: المجاورة، وهى إطلاق اسم الشىء على ما يجاوره، كما يطلق الراوية، وهو اسم للدابة تحمل القربة على القربة نفسها، والثياب على نفس الإنسان قال:

فشككت بالرمح الأصم ثيابه

ليس الكريم على القنا بمحرم

السابعة عشرة: البدلية، كما يقال: قضينا الصلاة بمعنى أديناها، إذ القضاء بدل عن الأداء.

الثامنة عشرة: المبدلية، كما يطلق الدم على الدية فى قولهم: أكلت دم فلان، أى ديته.

التاسعة عشرة: التعلق الاشتقاقى، بأن يكون بين اسم الأول والثانى مناسبة فى الاشتقاق كما بين اسم الفاعل أو اسم المفعول مع المصدر وبين بعض الصفات وبعض حتى جاز أن يوضع أحدها موضع الآخر ويستعمل فيه ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ أى مخلوقه ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ أى معلومه ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ أى ساترًا ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ أى مدفوق.

المجاز المرسل:

والمجاز الذى تكون العلاقة فيه واحدة من هذه الأنواع يسمى: المجاز المرسل.

obeikandl.com

الباب السادس:

الاســـــتعارة

الاستعارة نوع من المجاز، ففيها استعمال اللفظ فى غير معناه الموضوع له فبذلك تكون مجازًا إلا أن العلاقة بين المعنى الوضعى والثانى تكون ما بينهما من مشابهة وعلى ذلك قولهم فى الاستعارة: إنها لفظ المشبه المستعمل فى المشبه به بادعاء أنه فرد من أفراده أو قولهم: «إنها مجاز علاقته المشابهة. . . إلخ، ولما كانت العلاقة فى الاستعارة هى المشابهة كانت نوعًا غير المجاز المرسل الذى العلاقة فيه إحدى تسع عشرة العلاقات السابقة.

وإنما أفردت الاستعارة ـ وهى نوع من المجاز ـ وخصت بالتقسيم وجعلت رأسًا لمبحث مستقل، وأفردت بالتأليف إذ أنها كما قال عبد القاهر:

أمد ميدانًا، وأكثر جريانًا، وأعجب حسنًا وإحسانًا. . وهى أجل من أن تأتى الصفة على حقيقة حالها وتستوفى جملة جمالها ـ ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان أبدًا فى صورة مستجدة تزيد قدره نبلا وتوجب له بعد الفضل فضلاً ـ وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد حتى تراها مكررة فى مواضع، ولها فى كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد وشرف منفرد وفضيلة مرموقة وخلابة موموقة.

ومن خصائصها التى تذكر بها، وهى عنوان مناقبها، أنها تعطيك الكثير من المعانى باليسير من اللفظ. . . إلخ إلخ[1].

(١) راجع القول فى الاستعارة المفيدة من كتاب أسرار البلاغة.

الاستعارة الأصلية:

أقسام الاستعارة: إذا كان اللفظ المستعار اسم جنس غير مشتق كلفظ أسد وشمس وقمر وبحر فالاستعارة تسمى أصلية، كما تقول رأيت أسداً يتكلم، مستعيراً لفظ الأسد لرجل شجاع، ونظرت بدراً يبتسم، تريد وجها جميلاً، ورأيت بالأمس بحراً فى مجلس فلان، تريد رجلاً كثير العلم.

الاستعارة التبعية:

وإذا كان المستعار اسمًا مشتقًا أو فعلاً أو حرفًا فاستعارته تبعية، كما تستعار لعل من معنى الترجى لمعنى الإرادة فى مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وكما تستعار اللام الموضوعة لإفادة الغرض والتعليل نحو: جئت لأتعلم، فتستعمل فى معنى ترتب شىء على آخر من غير أن يكون الثانى غرضًا ولا علة، قال تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ ومن الاستعارة التبعية قتل زيدٌ خالدًا على معنى ضربه ضربًا شديدًا، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ بمعنى على الجذوع، وقول الشاعر:

جمع الحق لنا فى أمام

قتل البخل وأحيى السماحا

وقوله تعالى: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾ ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ وسيأتى لهذا القسم تفصيل إن شاء الله تعالى.

الاستعارة الصريحة والاستعارة المكنية:

وتنقسم الاستعارة إلى تصريحية ومكنية، وذلك أنه لما كانت الاستعارة مبنية على دعوى أن المشبه الذى استعير له اللفظ فرد من أفراد المشبه به داخل فى حقيقته كان لا بد فى الاستعارة من أن يعتبر التشبيه نسبيًا، كأنه لا تشبيه، بل لا أكثر من إطلاق لفظ على بعض أفراده، ولهذا لا يجوز فى الاستعارة الجمع بين المشبه والمشبه به على طريق يدل على التشبيه وإلا كان تشبيهًا لا أستعارة، كما إذا وقع المشبه به خبرًا عن الشبه، أو حالا منه، أو صفة، أو مضافًا له، أو بين المشبه به بالمشبه ـ نحو قوله:

أنت مصباح كل ضوء فما تصـ

ـدر إلا عن ضوئك الأضواءُ

وكان زيد بدرًا وخلته بحرًا.

والريح تعبث بالغصون وقد جرى

ذهب الأصيل على لجين الماء

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾.

يا بن الكواكب من أئمة هاشم

والرجح الأحلام والأحساب

وإذ كان لا يجوز فى الاستعارة أن يجمع بين طرفها وجب أن يكتفى بذكر أحدهما ـ فإن ذكر المشبه به ـ فتصريحية، وإن ذكر المشبه وشىء من لوازم المشبه به ـ فمكنية.

فإذا وقع فى نفسك أن تشبه المنية بالسبع، ثم قلت: أظفار المنية نشبت

بفلان ـ فطويت ذكر المشبه به ـ وذكرت لازمه، وهو الأظفار وذكرت معه المنية المشبهة فالاستعارة مكنية، وكذلك قد تشبه العناية برجل ذى أعين تلاحظ، ثم يقال: لاحظتك عيون العناية قال:

وإذا العناية لاحظتك عيونها

نم فالمخاوف كلهن أمان

فقد طوى المشبه به، وهو الرجل، وذكر لازمه وهو العيون، على طريق الاستعارة المكنية، وكذلك تقول: شممت رائحة العلم، طاويًا ذكر المشبه به وهو الشيء ذو الرائحة مكتفيًا بذكر لازمه الدال عليه ـ وهو الرائحة، وقال زهير بن أبى سلمى:

صحا القلب عن سلمى وأقصر با

طله وعرى أفراس الصبا ورواحله

شبه الصبا بجهة من جهات المسير ـ كالحج والتجارة ـ قضى منها الوطر ـ فأهملت آلاتها ـ ثم حذف المشبه به ـ وذكر ما هو لازمه ـ وهو الأفراس والرواحل، وكذلك تقول زمام الحكم بيد فلان، فى تشبيه الحكم التابع لرأيه، المنقاد لمشيئته بالناقة المنقادة لمن يأخذ بزمامها، فالاستعارة فى هذا كله مكنية، إذ قد ذكر فيها المشبه، مع حذف المشبه به كما ترى.

هذا والجمهور يسمون إثبات لازم المشبه به للمشبه استعارة تخيلية، فعلى هذا لا تنفك المكنية عن التخييلية، كما أنه لا توجد استعارة تخييلية إلا فى صورة الاستعارة بالكناية، فإثبات الأظفار للمنية، والعيون للعناية، والرائحة للعلم، والأفراس والرواحل للصبا، كل ذلك على سبيل الاستعارة التخييلية.

وقد ترى وجها جميلاً فتشبهه بالبدر ثم يطلق البدر عليه وتقول رأيت فى الطريق بدراً، فتكون الاستعارة مصرحة لأنك صرحت فيها بلفظ المشبه به، وعليه قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فالصراط مستعار لملة الإسلام ـ لأنها أشبهت الصراط ـ فى أنها تهدى سالكها إلى السعادة كما يهدى الطريق إلى غايته، وقد ذكر المشبه فى الآية فهى من باب الاستعارة المصرحة.

وقال:

وصاعقة من نصله تتكفى بها
على أرؤس الأقران خمس سحائب

استعار السحائب للأصابع استعارة تصريحية ـ وقال:

وفى الجيرة الغادين من بطن وجرة
غزال كحيل المقلتين ربيب[1]

استعار الغزال للمحبوبة.

فالاستعارة فى هذا كله تصريحيه إذ قد ذكر المشبه به وصرح بلفظه.

الاستعارة المرشحة والمجردة والمطلقة:

ثم إن الاستعارة قد يذكر معها ما هو من خواص المشبه به فتكون مرشحة وقد يذكر معها ما هو خاص بالمشبه فتكون مجردة، فإن لم تقترن بشىء من ملائمات هذا ولا ذاك أو اقترنت بملائمات كل منهما كانت استعارة مطلقة.

---

(١) ربيب ومربوب بين الربوبة مملوء.

قال زهير بن أبى سلمى:

فشد ولم يفزع بيوتًا كثيرة
لدى حيث ألقت رحلها أم قشعم
لدى أسد شاكى السلاح مقذف
له لبد أظفاره لم تقلم

ضمير ـ شد ـ إلى رجل اسمه حصين بن ضمضم قُتل أخوه من رجل عبسى، فشد على رجل واحد منهم ليثأر منه لأخيه ولم يفزغ كثيراً من بيوتهم بل اكتفى بقتيل واحد ولدى متعلق بشد، وأم قشعم كناية المنية، وأراد بالأسد حصينا على طريق الاستعارة التصريحية ويقال للرجل: إنه شاكى السلاح وشائك السلاح، وشاك السلاح، إذا كان تام السلاح كامل الشوكية والعدة مقذف، يقذف به إلى الوقائع كثيراً لأنه شجاع القوم الذى يحميهم، فقد استعار الأسد لحصين استعارة تصريحية ثم قرنه بقوله: شاكى السلاح، وهو إنما يوصف به الرجل لا السبع، فهو مناسب للمشبه، ثم قال: مقذف، وهو كذلك من أوصاف المشبه، وقال بعد ذلك: له لبد، وهو وصف السبع الذى تلبد شعره على منكبه، وكذلك قوله: أظفاره لم تقلم من ملائمات السبع، فقد قرنت الاستعارة بما يلائم كلا منهما من غير ترجيح فهى مطلقة فإن اقتصرت على أحد الوصفين الأولين أو على كليهما كانت مجردة، وإن اقتصرت على أحد الوصفين الأخيرين كانت مرشحة.

وإذا قلت: لاحظتك عيون العناية كانت استعارة بالكناية لم تقرن بملائم أحد الطرفين فهى مطلقة، فإذا قلت: لاحظتك عيون العناية التى لا تنام أو

نحـو ذلك، أو قلت: نطق لسـان الحال بكـذا كان من الاسـتعـارة المكنيـة المرشـحة، وإن غـيرت المـثال فـقلت: نطقت الحال الظـاهرة مثلاً كـانت مجردة، وعلى هذا النحو.

والاستعارة قـد تكون وفاقية، إذا أمكن أن يجتمع كل من المـستعار منه والمستعار له فى محل واحد، كما إذا استـعير الإحياء للهداية إذ هما وصفان يجتمـعان، فالله جل شأنه يهدى من يشـاء، وهو الحى الذى لا يموت ـ قال تعـالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ يعنى ضالا فهديناه، فالإحـياء مستعار للهدى، وهما يجتمعـان كما عرفت، فهى استعارة وفاقيـة، والموت مستعار للضلال، وهمـا لا يجتمـعان، إذ لا يكون المـيت ضالاً ولم يعرف وصـفه بالضلال، وإذا لم يمكن اجـتماع الطرفين فـهى استعارة عنادية، وكـذلك قد يستـعار للرجل الموجود أنه مـعدوم، وأنه لا شىء استعـارة عنادية ـ قال أبو تمام:

هب من له شىء يريد حـجابه
ما بال لا شـىء عليه حـجاب

الاستعارة التهكمية والاستعارة التمليحيه:

ومن العنادية أيضًا الاستعارة التهكمية والتمليحية بأن يستعار الشىء لضده تهكمًا أو تحـسينًا وتمليحًا للكلام، فـيعتبر التـضاد بين الطرفين كأنـه مناسبة بينهمـا وارتباط ـ تهكمًـا أو تمليحًـا ـ وقد ورد فى الكتاب العـزيز استـعارة التبـشير للإنذار تهكمًا، قـال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وقـد يقـال للأعمى: إنه بصير تأدبًا فى القول وتمليحًا.

الاستعارة التمثيلية:

بقى القول فى الاستعارة التمثيلية، وهى المركب المستعمل فى غير معناه الأصلى لعلاقة التشابه بين المعنيين، ولا يكـون تمثيلاً إلا إذا كان وجه الشبه هيئة مجتـمعة من أشياء عدة ـ وبخلاف ذلك لا يكون استعـارة تمثيلية، نحو أن يكون وجه التـشبيه مفـرداً أو متعدداً غـير مكون لهيئـة واحدة، ونحو أن يكون أحد طرفى التشبيه مفرداً وإن كـان وجهه هيئة متعددة نص على ذلك ـ على صقر ـ فى كـتاب شرك الأمل، ويدل عليه كـلام الخطيب القزوينى فى التلخـيص، ولكن كلام السكاكى كـأنه لا يخرج هذا القـسم من الاستـعارة التمـثيلية، والأمر بعـد محل بحث، فربما كـان الحق أن هذا إن وجد يكون تمثيلاً، وفى شرح السعد، عند الكلام على خلافات السكاكى فى البيان قال: لا نسلم أن التـمثيل يسـتلزم التركيـب، بل هو استعـارة مبنية علـى التشبـيه التمثيلى، والتشبيه قد يكون طرفاه مفردين كما فى قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ الآية. . . إلخ. اهـ.

فـقولـك للرجل، يتـردد فى أمر لا يعـرف الرأى فـيـه ولا يدرك طريق الصواب: إنى أراك تقدم رجلاً وتؤخـر أخرى، من الاستعارة التمثـيلية، شبه فيها هيئة الرجل فى تردده بين الفعل والتـرك بهيئة الرجل يقدم خطوة ويتأخر خطوة أو يقـدم رجله ويؤخرها، فـهو ثابت فى مكانه لا يتـقدم ولا يتـأخر، ووجه الشبه بينهما هو الإقدام مع الإحجـام من غير اعتماد على أحدهما ولا ترجيح لأيهما، وكـذلك تقول فى الأمر وضع عند أهله وصار إلى مسـتحقه واستقر فى نصابه ورجع إلى أصحابه ـ أخـذ القوس باريها ـ من تشبيه رجوع

القوس إلى من براها، فكان أعـرف بوجه النزع بها وأدرى بطريق استعـمالها بالأمر ينزل عند من يعرف تدبيره، ويهتدى إلى موارده ومصادره، لأن فى كل من المشبـه والمشبه به أمرًا قد صـار إلى الخبير بأمره والجـدير به، فهو من الاستعارة التمثيلية.

وكذلك قولهم للرجل يلاين الرجل ويصانعه حتى يظفر بطلبته ويدرك منه حاجتـه ـ ما زال يفتل منه فى الذروة والغارب حـتى رضى ـ وأصل الفتل فى الذروة والغـارب أن البـعيـر إذا شـذ عنك وشمس فـأنت تروضـه وترد من جماحه، بأن تفتل برفق ولين فى شعرات غاربه وذروته.

ذورته: سنامه، وغاربه: ما بين سنامه وعنقه.

استعيرت هذه الحالة للرجل المتقدم، لما فى الحالتين من حسن المدخل ولطف الحيلة إلى الغرض استعارة تمثيلية.

ونظير هذا قـولهم: حك له مواضع الجرب، فـإن البعيـر إذا حُك جربه حن ولان.

ومن الاستعـارة التمثيلية قولهم: هو يـرقم على الماء، وهو يحدو وليس له بعير، يريد الصيد فى عريسة الأسد... إلخ.

المثـــــل:

والاستعارة التمثيلية إذا شاعت وتعورف اسـتعمالها كثيرًا قيل لها: مثل، نحو قـولهم: لا يطاع لقصـير أمر ـ بـبقة خلفت الرأى ـ خـير مـا جاءت به العصا ـ داعوا دما ضيعه أهله ـ خـل عنى إذا وعداك ذم ـ لأمر ما جدع قصير أنفه ـ آخر البز على القلوص ـ بيدى لا بيد عمرو.

وأصل هذه كلها مستعارة مما كان بين جذيمة[١] الأبرش الذى ملك ما على شاطئ الفرات والزباء ملكة الجزيرة.

* * *

(١) جذيمة بن مالك بن نصر، ويقال له: جذيمة الأبرش، وجذيمة الوضاح «الأبرص» ملك ما على شاطئ الفرات، وكانت الزباء ملكة الجزيرة، قتل جذيمة أباها، فلما استقر لها الملك من بعده كتبت إلى جذيمة أنها لم تجد مُلك النساء إلا قُبْحًا فى السماع وضعفًا فى السلطان، وأنها لم نجد لملكها موضعًا ولا لنفسها كفؤًا غيرك، فأقبل إلىَّ لأجمع ملكى إلى ملكك وأصل بلادى ببلادك، وتتقلد أمرى مع أمرك ـ تريد بذلك أن تغدر به وتثأر منه لأبيها ـ فلما وصل إلى جذيمة كتابها استخفه الطمع فيما منته به ودعته إليه، وشاور جماعته فى الأمر، فاجتمع رأيهم على أن يجيب دعوتها ويسير إليها ليستولى على ملكها ـ وكان فى القوم رجل اسمه قصير بن سعد اللخمى، فخالفهم فيما أشاروا به ونصح لجذيمة أن يستقدمها هى إليه، ولا يذهب إليها، فخالفه جذيمة، فقال قصير: لا يطاع لقصير أمر ـ فذهبت مثلاً.

وسار جذيمة إليها، فلما نزل دعا قصيرًا، فقال له: ما الرأى؟ فأجابه: ببقة خلفت الرأى، ثم قال له: إذا شعرت من القوم بغدر فاركب العصا «وهى فرس لجذيمة لا تجارى» وإنى راكبا ومسايرك عليها.

وأحاطت بجذيمة كتائب الزباء فحالت بينه وبين العصا فركبها قصير، وجرت به إلى غروب الشمس ثم نفقت وقد قطعت أرضًا بعيدة فبنى عليها برجا يقال له: برج العصا، وقالت العرب: خير ما جاءت به العصا.

ودعت الزباء بالسيف والنطع ـ ثم قالت: إن دماء الملوك تشفى من الكلب ـ فأمرت بطست من ذهب أعدته له وسقته الخمر حتى سكر، ثم أمرت براهشيه فقُطعا.

«الراهشان: عرقان فى باطن الذراعين».

وقدمت إليه الطست، وقد قيل لها: إن قطر من دمه شىء فى غير الطست طُلب بدمه ـ فلما ضعفت يداه سقطتا فقطر من دمه فى غير الطست فقالت الزباء: لا تضيعوا دم الملك، فقال جذيمة: دعوا دمًا ضيعه أهله.

وكان جذيمة قد استخلف على الملك ابن أخته عمرو بن عدى فقال له قصير: أجدع =

بقيت للاستعارة أقسام غير ما ذكرنا تركناها لما عرفت فى باب التشبيه.

وكذلك بقى القول فى طريقة عبد القاهر فى الكلام على الاستعارة وتقسيمها، وما خالفه القوم فيه، وترجيح أحدى الطريقتين على صاحبتها، كل ذلك يمنعنا من الخوض فيه ما ذكرنا ثمت ـ وإلى الله ترجع الأمور.

= أنفى واضرب ظهرى ودعنى وإياها ـ ليأخذ له بثأر خاله جذيمة ـ فقال عمرو: ما أنا بفاعل، وما أنت لذلك مستحقا عندى، فقال قصير: خل عنى إذًا وعداك ذم ـ ثم جدع أنفه وأثر بظهره آثارًا، فقالت العرب: لأمر ما جدع قصير أنفه «وفى أمثال الميدانى: لمكر ما جدع قصير أنفه» ثم خرج حتى دخل على الزباء فقالت: ما الذى أرى بك يا قصير؟ قال: زعم عمرو أنى قد غررت خاله، وزينت له المصير إليك وغششته ومالأتك، ففعل بى ما ترين، فأقبلت إليك ـ فأكرمته وأصابت عنده من الحزم والرأى ما أرادت، فلما عرف أنها استرسلت إليه ووثقت به قال: إن لى بالعراق أموالاً كثيرة وثيابًا وطرائف وعطرًا فابعثينى إلى العراق لأحمل مالى، وأحمل إليك من بزوزها وطرائفها وبعض ما لا غنى بالملوك عنه، فأذنت له ودفعت إليه أموالاً وجهزت معه عبيدًا، فسار متنكرًا حتى دخل على عمرو بن عدى فأخبره الخبر وقال: جهزنى بصنوف البز والأمتعة، لعل الله يمكن من الزباء فتصيب منها ثأرك، فأعطاه حاجته، ورجع به إلى الزباء فأعجبها وسرها وازدادت به ثقة، وجهزته ثانية فسار حتى قدم على عمرو فجهزه وعاد إليها، ثم عاد الثالثة فقال لعمرو: اجمع ثقات أصحابك واحمل كل رجلين على بعير فى غرارتين ففعل عمرو ذلك، وسار حتى صار قريبًا من مدينة الزباء فتقدم قصير فبشرها وأعلمها بما جاء به من المتاع والطرائف وقال لها: آخر البز على القلوص.

وكانت الزباء قد حذرت أن يفاجئها عمرو فى طلب الثأر فاتخذت فى مجلسها نفقًا إلى حصن لها، وقالت: إن فجأنى أمر دخلت النفق إلى حصنى، ثم دست من أهل بلادها رجلاً من أجود المصورين فصور لها عمرًا جالسًا وقائمًا وراكبًا حتى لا تراه على حال إلا عرفته، وبلغ المصور من ذلك ما أرادت.

فلما توسطت الإبل المدينة خرجت الرجال من الغرائر فصاحوا بأهل المدينة ووضعوا فيهم السلاح، ودل قصير عمرًا على النفق فقام على بابه، وأقبلت الزباء إلى النفق فأبصرت عمرًا فعرفته، فمصت خاتمها وكان فيه السم، وقالت: بيدى لا بيد عمرو، وجللها عمرو بالسيف فقتلها. اهـ باختصار وتصريف من الميدانى.

obeikandl.com

الباب السابع:

الكنايـــــة

تعريف الكناية:

السكاكى: الكناية هى تـرك التصـريح بذكر الشىء إلى ذكـر ما يلزمـه، لينتقل من المذكور إلى المتـروك، تقول: فلان طويل النجاد، لينتقل منه إلى ما هو ملزومه ـ وهو طول القـامة ـ وكما تقول: فـلانة نؤم الضحى ـ لينتقل منه إلى ما يلزمه ـ وهو كـونها مخدومة غيـر محتاجة إلى السعى بنفـسها فى إصلاح المهـمات، وذلك أن وقت الضحى وقت سعى نسـاء العرب فى أمر المعاش وكـفاية أسبابه وتحصيل مـا تحتاج إليه فى تهيئـة المتناولات وتدبير إصلاحـها، فلا تنام فيـه من نسائهن إلا من تكون لها خـدم ينوبون عنها فى السعى لذلك. اهـ. «النجاد بالكسر: حمائل السيف».

الفرق بين المجاز والكناية:

ولم تكن نوعًـا من المـجاز مع أن فـيهـا إرادة مـا لم يوضع له اللفظ، واستـعمال القول فى غـير حقيـقته، لما أن المـجاز لا يمكن فيه أن يقـصد المعنى الوضعى للفظ ليكون مـثبتًا فى الكلام مخبـرًا به ومقصودًا فى الإسناد فإنه لا يمكن فى نحو قولك: سال المـيزاب أن يراد بالميزاب معناه الوضعى على أن يكون السيلان مثبتًا له ومضافًـا إليه، وإنما يتعين حمل الميزاب على الماء، كما سبق.

وأما الكناية فيجوز أن يقصد باللازم المصرح به فى الكلام معناه الوضعى على أن يكون مثبتًا ومخبرًا به، مع إرادة الإخبار بما هو لازمه أيضًا فلا مانع أن تقول: طويل النجاد لتفيد أن له سيفًا ذا نجاد طويلة، كما تفيد أن الرَجل أيضًا طويل القامة، كما أنك إذا كنيت عن كرم رجل، فقلت: إنه رجل فصلانه مهزولة، على معنى أنه كريم، ينحر كرائم الأمهات من النياق فتبقىَ أولادها ـ التى هى الفصلان ـ مهزولة من فقد أمهاتها ـ كان لك مع هذا أن تريد الإخبار عن الرجل الممدوح، بأن عنده فى الواقع فصالا هزيلة، ومثل هذا لا يتيسر إرادته فى المجاز، فبذلك افترق النوعان.

أقسام الكناية:

والكناية قد تقع مرادًا بها الدلالة على صفة معينة كما يكنى عن البله، بعرض القفا، أو بعرض الوسادة، فيقال: فلان عريض القفا، أو عريض الوساد لإرادة أنه غبى أبله.

وكما يكنى بجبن الكلب عن الكرم وحب الأضياف، فان جبن الكلب لا يكون إلا من تآديب صاحبه له وتخويفه من أن ينبح الضيفان، ومن هذا الباب: كلبه يأنس بالزائرين، وكلبه يحب الضيوف.

قال الشاعر:

لعبد العزيز على قومه
وغيرهم متنن ظاهره
فبابك أسهل أبوابهم
ودارك مأهولة عامره

وكلبك آنس بـالمـعـتـفـيـ

ـن من الأم بابنتـهـا الزائره

المعتفى: الذى يجىء فى طلب المعروف.

وقال:

تراه إذا ما أبصر الضـيف مقبلاً

يكلمـه من حـبـه وهو أعـجم

وقد تكون الكناية مـرادًا بها إفادة ذات والدلالة على موصـوف كما يكنى عن رجل بعيـنه، بأنه صاحب الأيادى كثـير الكرم فـيقال كنـت عند صاحب الأيادى الكريم، يراد به فلان، وكما يقال عن القلوب بطريق الكناية: مجامع الأضغان ـ قال:

الضاربين بكل أبيض مخذم

الطاعنين مـجامع الأضـغان

فسروا ـ المخذم ـ بالقاطع، وضبطوه بالخاء المـعجمة والذال المعجمة، والذى فى القـاموس سـيف خذم ككتف وصـبور ومـعظم قاطع، ثـم قال: وكمنبر سيف الحارث بن أبى شمر الغسانى.

وفى المخصص روى الخذوم القاطع والجمع خذم، وأنشد:

طردوا المـخازى عن بيوت أبـيهم

بأسـنة وصـــــوارك خـــــذم

وروى من أوصاف السيوف المهذم بمعنى القاطع.

وقد يكنـى عن الإنسان بأنه حى مسـتوى القـامة عريـض الأظفار، بادى البشرة ـ فالكناية فى هذا كله قد أريد بها إفادة موصوف.

وقد يراد بها الدلالة على ثبوت أمر لأمر، واختصاص صفة بموصوف، كما فى قوله:

فما جازه جودٌ ولا حل دونه

ولكن يصير الجود حيث يصيرُ

أراد أن يبين أنه جواد فعمد فى إثبات الجود له إلى طريق الكناية فنفى أنَ يكون الجود موزعًا بينه وبين غيره، وأن يوجد بعيدًا عنه، ثم ذكر أنه ملازم لجهته التى يصير إليها، منتقل معه مهما انتقل.

وعلى هذا الباب قولهم: مجلس فلان مظنة الجود والكرم، بمعنى أنه كريم، وقال زياد الأعجم:

إن السماحة والمروءة والندى

فى قبةٍ ضُربت على ابن الحشرج

بمعنى أنه سمح كريم.

وقال الشنفرى:

يبيت بمنجاة من اللوم بيتها

إذا ما بيوت بالملامة حلتِ

فى القاموس: المنجى: ما ارتفع من الأرض، ولعل المنجاة هنا مصدر ميمى معناه المكان، وانظر إذًا معنى التاء فيه، ويقولون فى المثل: الصدق منجاة.

التعريض:

وإذا كان الموصوف فى الكناية غير مذكور سواء كانت من النوع الذى قصد فيه إفادة صفة وهو القسم الأول، أو نسبة وهو القسم الأخير فالكناية تسمى تعريضًا كما تقول فى نفى الإسلام عن رجل سيئ الأخلاق: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ـ فقد نفيت الإسلام عن موصوف لم يذكر فى كلامك.

التلويح والرمز والإشارة والإيماء:

هذا والكناية التى ليست تعريضًا إذا كثرت الوسائط فيها فهى تلويح وإن كانت قليلة، ولكنها خفية، فهى الرمز، وإن قلت من غير خفاء فهى الإيماء والإشارة.

قال أبو تمام:

أبين فما يزرن سوى كريم

وحسبك أن يزرن أبا سعيد

أراد أن يفيد ثبوت الكرم لأبى سعيد فجاء بهذه الكناية، قريبة التناول قليلة الخفاء والوسائط، إذ ليس بعد قوله:

* وحسبك أن يزرن أبا سعيد *

الا أنه كريم، فذلك الإيماء والإشارة.

وقال الشاعر:

سألت الندى والجود ما لى أراكما

تبدلتما ذلا بعز مؤبدِ

وما بال ركن المجد أمسى مهدمًا

فقالا أُصبنا بابن يحيى محمدِ

فقلت فهلا متما عند موته

فقد كنتما عبديه فى كل مشهدِ

فقالا: أقمنا كى نعزى بفقده

مسافة يوم ثم نتلوه فى غدِ

وهو ظاهر فى إفادة جود محمد بن يحيى ونداه ومجده، فهو إيماء وإشارة.

ومثله قول البحترى.

أوما رأيت المجد ألقى رحله

فى آل طلحة ثم لم يتحولِ

فذلك كله من الإيماء.

والإشارة وقال ابن هرمة:

لا أمتع العوذ بالفصال ولا

أبتاع إلا قريبة الأجل

السكاكى ـ دل بقوله:

* لا أمتع العوذ بالفصال *

على أنه لا يبقى لها فصالها فينتفع بها من جهة استئناسها بها وحصول الفرح الطبيعى لها، فى مشاهدتها إياه، وما تستملح من حركاتها لديها.

ثم قال: ودل بمعنى أنه لا يبقيها على أنه ينحرها، ودل بمعنى نحرها

على أنه يصرفها إلى قرى الضيفان، وكذا دل بقوله: قريبة الأجل على أنها لا تلبث عنده حية، ودل بذلك على أنه ينحرها ثم دل بنحرها، على معنى (أضيف) اهـ.

فقد توصل الشاعر إلى المعنى الذى قصده بطريق بعيد ووسائط كما رأيت كثيرة فتكون الكناية تلويحًا.

وكذلك قولهم فى الكناية عن رجل مضياف: إنه كثير الرماد، لينتقل من كثرة الرماد إلى ما يلزمه وهو كثرة الجمر، ثم من هذا إلى لازمه، وهو كثرة إحراق الحطب تحت القدور ومنه إلى لازمه الذى هو كثرة الطبائخ ومن هذا إلى لازمه وهو كثرة الآكلين ومنه إلى كثرة الضيفان ومنه إلى أنه مضياف، فالكناية من التلويح.

وأما الرمز فكما مر من قولهم فى الكناية عن البليد: إنه عريض القفا فإن لزوم البلادة لعرض[1] القفا خفى لا يعرفه إلا قليل، وكذلك قولهم: عريض الوساد لينتقل منه إلى عرض القفا ثم إلى البلادة، فالواسطة بين الكناية والمراد شىء واحد ولكنه لازم خفى كما ترى، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) عرض من باب ظرف.

الاستعارة بالكناية

مذهب الجمهور:

سبق أن الاستعارة المكنية هى ما حذف فيها المشبه به وذكر شىء من لوازمه مع ذكر المشبه، والجمهور يرون أن الاستعارة فى لفظ المشبه به المحذوف فيقولون إنه لوحظ فى النفس استعارته للمشبه ثم حذف بعد استعارته ورمز إليه بشىء من لوازمه.

مذهب السكاكى:

ويرى السكاكى على ما فهم القوم من كلامه أن الاستعارة فى لفظ المشبه المذكور فيقول: إنه مستعار للمشبه به بادعاء أنه عين المشبه، وفرد من أفراده، قال فى بيان ذلك: ندعى ههنا اسم المنية اسمًا للسبع، مراد فًا له بارتكاب تأويل، وهو أن المنية تدخل فى جنس السباع لأجل المبالغة فى التشبيه بالطريق المعهود، ثم نذهب على سبيل التخييل إلى أن الواضع كيف يصح منه أن يضع اسمين لحقيقة واحدة وأن لا يكونا مترادفين؟ فيتهيأ لنا بهذا الطريق دعوى السبعية للمنية مع التصريح بلفظ المنية.

مذهب الخطيب:

وأما الإمام محمد بن عبد الرحمن القزوينى الخطيب، صاحب تلخيص المفتاح، فقد ذهب إلى أن الاستعارة بالكناية هى التشبيه الذى يلاحظه المتكلم ويضمره فى نفسه، فلا يصرح بشىء من أوكانه سوى المشبه، فلا

تكون الاستعارة بالكناية على مذهبه نوعًا من الاستعارة المعروفة لنا بأنها اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له لعلاقة المشابهة.

مذهب العصام:

قال المولى عصام الدين بعد أن أورد تلك المذاهب الثلاثة: وإذا عرفت الأقوال الثلاثة فاستمع، فلنا تحقيق رابع أرجو أن يكون ممن ليس لما أعطاه مانع، وهو أن الاستعارة بالكناية من فروع التشبيه المقلوب، فكما يجعل المشبه مشبها به مبالغة فى كماله فى وجه الشبه حتى استحق أن يلحق به المشبه به كقوله:

وبدا الصباح كأن غرته

وجه الخليفة حين يمتدح

حيث شبه غرة الصباح بوجه الخليفة.

كذلك يستعار اسم المشبه للمشبه به فيكون غاية المبالغة فى كمال المشبه فى وجه الشبه، كما فى أظفار المنية، فالمراد بالمنية السبع، ويجعل الكلام حينئذ كناية عن تحقق الموت بلا ريبة، فنشبت المنية أظفارها بفلان معنى نشب السبع أظفاره به ـ كناية عن موته ـ لا محالة، وحينئذ فلا تجوز فى إضافة الأظفار إلى المنية ولا إشكال فى جعل المنية استعارة ـ ووجه تسميتها استعارة بالكناية فى غاية الوضوح. اهـ.

وحاصل المذاهب الأربعة فى نحو البيت السابق:

وإذا العناية لاحظتك عيونها

نم فالمخاوف كلهن أمان

أن تقول على طريق السلف: إن الشاعر لاحظ فى نفسه تشبيه العناية برجل ثم استعار الرجل المشبه به للعناية ثم حذف المستعار ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو العيون وأثبته للمشبه استعارة تخييلية، كما سلف، وتقول على طريق السكاكى: إن العناية مستعارة للرجل بادعاء أنه فرد من أفراد العناية، على معنى أن للعناية فردين أحدهما العناية الحقيقية، وثانيهما الرجل الذى يتأول فيه، بإدخاله تحت اسم العناية مبالغة فى تشبيهها به، فاستعير لفظ العناية لذلك الفرد الادعائى.

وتقول على مذهب الخطيب: إن الشاعر شبه فى نفسه العناية بالرجل ثم طوى ذكر المشبه به ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو العيون.

وتقول على طريقة العصام: إن الشاعر شبه الرجل بالعناية مبالغة فى قوة الشبه كما يشبه السبع بالمنية، وكما تشبه غرة الصباح بوجه الخليفة، ثم استعير لفظ المشبه به المقلوب وهو العناية للمشبه وهو الرجل، ويكون معنى ملاحظة عيون الرجل كناية طلب الكرامة له مثلاً.

الاستعارة التخييلية عند السكاكى:

فسر السكاكى الاستعارة التخييلية بأنها التى يكون معناها غير موجود عند الحس، ولا عند العقل، ولذلك قد توجد التخييلية على مذهبه من غير أن توجد معها الاستعارة المكنية، على خلاف مذهب القوم فى ذلك، وقد مر بيانه.

ومجمل ما عمل السكاكى هنا أنه قسم الاستعارة إلى تصريحيه ومكنية وقسم التصريحية إلى تحقيقية وتخييلية، والمراد بالتحقيقية أن يكون المشبه

المتروك شيئًا متحققًا أما حسيًا وإما عقليًا، والمراد بالتخييلية أن يكون المشبه المتروك شيئًا وهميًا محضًا لا تحقق له إلا فى مجرد الوهم، ثم تقسم كل واحدة منهما إلى قطعية، وهى أن يكون المشبه المتروك متعين الحمل على ما له تحقق حسى أو عقلى، أو على ما لا تحقق له ألبتة إلا فى الوهم ـ وإلى احتمالية، وهى أن يكون المشبه المتروك صالح الحمل تارة على ما له تحقق، وأخرى على ما لا تحقق له، فهذه أقسام أربعة: الاستعارة المصرح بها التحقيقية مع القطع ـ الاستعارة المصرح بها التخييلية مع القطع ـ الاستعارة المصرح بها مع الاحتمال للتحقيق والتخييل ـ الاستعارة بالكناية.

فمثال المصرحة التحقيقية: رأيت أسدًا يتكلم، ونظرت إلى بدر يبتسم، فإن المشبه هنا وهو الرجل الشجاع والذات الجميلة متحقق محسوس.

والتصريحية التخييلية هى أن تسمى باسم صورة متحققة صورة عندك وهمية محضة تقدرها مشابهة لها مفردًا فى الذكر ـ فى ضمن قرينة مانعة عن حمل الاسم على ما يسبق منه إلى الفهم من كون مسماه شيئًا متحققًا، وذلك مثل أن تشبه المنية بالسبع فى اغتيال النفوس وانتزاع أرواحها بالقهر والغلبة من غير تفرقة بين نفاع وضرار، ولا رقة لمرحوم، ومساس بقيا على ذى فضيلة تشبيها بليغًا حتى كأنها سبع من السباع فيأخذ الوهم فى تصويرها فى صورة السبع ـ واختراع ما يلزم صورته ويتم بها شكله من ضروب هيئات وفنون جوارح وأعضاء، وعلى الخصوص ما يكون قوام اغتيال السبع للنفوس بها وتمام افتراسه للفرائس بها، من الأنياب والمخالب ثم تطلق على مخترعات الوهم عندك أسامى المتحققة على سبيل الإفراد بالذكر وأن تضيفها

إلى المنيـة قائلاً: مخـالب المنيـة أو أنياب المنيـة، الشبيـهة بالسـبع ليكون إضافتها إليـها قرينة مانعة من إجرائها على ما سـبق إلى الفهم منها من تحقق مسمياتها.

والقـسم الثـالث: التصريحية المحتملة للتـحقيق والتخييل، كما إذا كان المشبه المتروك صالح الحمل على ما له تحقق من وجه وعلى ما لا تحقق له من وجه آخر، ونظيره قول زهير:

صحا القلب عن سـلمى وأقصر با

طله وعرى أفراس الـصبا ورواحله

أراد أن يبين أنه أمـسك عما كـان يرتب أو أن الصبـا، وقمع النفس عن التلبس بذاك معرضًا الإعراض الكلى عن المعاودة لسلوك سبيل الغى وركوب مراكب الجهل، فقال:

* . . .وعرى أفراس الصبا ورواحله *

فحق قوله: أفراس الصبا ورواحله أن يعد استـعارة تخيلية لما يسبق إلى الفهم ويتبادر إلى الخاطر من تنزيل أفـراس الصبا ورواحله منزلة أنياب المنية ومخالبـها، وإن كان يحتـمل احتمالاً بالتكلف أن تجـعل الأفراس والرواحل عبارة عن دواعى النفوس وشـهواتها والقوى الحاصلة لها فى اسـتيفاء اللذات أو عن الأسبـاب التى قلما تتـآخذ فى اتباع الغى وجـر أذيال البطالة إلا أوان الصبا.

وأمـا القـسم الرابع: وهو الاستعارة بالكنايـة فقد سبق الكلام عنه ـ والله سبحانه وتعالى أعلم.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــوع	الصفحة
مقدمة المؤلف	٥
(مباحث تمهيدية)	٧
تاريخ علم البيان	٧
علاقة الأمم بلغاتها	٧
علاقة الإسلام باللغة العربية	٨
عناية المسلمين باللغة العربية	٩
نشأة الحاجة إلى علوم اللسان العربى	٩
عدم حاجة العرب إلى علوم اللغة	١٠
وضع قواعد النحو والصرف	١٢
تأثير العجم فى علوم اللغة	١٣
علم آداب اللغة	١٥
علم العروض	١٦
الباب الأول: مجمل المذاهب فى إعجاز القرآن	١٩
فائدة علوم البلاغة	٢٠
مبحث أن علوم البلاغة قديمة	٢١
الجاحظ وجماعة ممن كتبوا فى علوم البلاغة	٢٣
عبد القاهر الجرجانى	٢٤
تحقيق القول فى أن الجرجانى أو السكاكى هو الذى وضع فن البيان	٢٤
الزمخشرى	٢٩

obeikandl.com

الموضـــــــــوع	الصفحة
علوم البلاغة بعد السكاكى	٣٠
الخطيب القزوينى وكتابا التلخيص والإيضاح	٣٠
السيوطى وكتبه	٣٤
وقوف علم البلاغة بعد الخطيب	٣٥
السعد والسيد والعصام وغيرهم	٣٦
الباب الثانى: تعريف كل من علمى المعانى والبيان	٣٩
فى أن الألفاظ المفردة لا تفاضل بينها فى الدلالة	٤٠
المركبات التامة هى التى تتفاضل مراتبها	٤١
المذاهب فى جـهات حسن الكلام والمـذهب الأول منها فى أن الحسن تارة يرجع إلى اللفظ وتارة يرجع إلى المعنى وقول مسلم ابن قتيبة فى بيانه	٤١
المذهب الثانى فى رجوع الحسن إلى اللفظ فـقط وعبارة محتملة فى ذلك لبشر بن المعتمر	٤٣
المذهـب الثالث لعـبد القاهر أن الحـسن فى الكلام من جـهة النظم	٤٤
نبذ من كلام عبد القاهر فيها توضيح وأمثلة	٤٩
علم البلاغة على مذهب عبد القاهر	٥٥
الفصاحة والبلاغة عند عبد القاهر	٥٦
طريقة السكاكى فى علم البلاغة	٥٦
علم البيان واسمه	٥٩
الفصاحة والبلاغة عند السكاكى	٦٠

obeikandl.com

الموضـــــــــــوع | الصفحة

بحث فى جعل إيراد المعنى الواحد الخ، جهة الوحدة بين أبواب
علم البيان ٦٠
الباب الثالث: علم البيان ٦٣
أبواب علم البيان ٦٣
طريقتهم فى حصر أبواب الفن ٦٣
تكلفهم لادخال التشبيه فى مباحث الفن ٦٥
الباب الرابع: التشبيه ٦٧
إجمال القول فى مزايا التشبيه ٦٧
تعريف التشبيه وأركانه ٦٨
أقسام التشبيه باعتبار طرفيه ٦٨
أقسام التشبيه باعتبار وجهه ٧١
الباب الخامس: الحقيقة والمجاز ٧٥
تعريف الحقيقة وأقسامها ٧٦
تعريف عبد القاهر للحقيقة ٧٧
تعريف المجاز وأقسامه ٧٨
علاقات المجاز ٧٨
المجاز المرسل ٨٣
الباب السادس: الاستعارة ٨٥
الاستعارة الأصلية ٨٦
الاستعارة التبعية ٨٦
الاستعارة الصريحة والاستعارة المكنية ٨٧

الموضـــــــــوع	الصفحة
الاستعارة المرشحة والمجردة والمطلقة	٨٩
الوفاقية والعنادية	٩١
الاستعارة التهكمية والاستعارة التمليحية	٩١
الاستعارة التمثيلية	٩٢
المثل	٩٣
الباب السابع: الكناية	٩٧
تعريف الكناية	٩٧
الفرق بين المجاز والكناية	٩٧
أقسام الكناية	٩٨
التعريض	١٠١
التلويح والرمز والإشاره والإيماء	١٠١
الاستعارة بالكناية	١٠٤
مذهب الجمهور	١٠٤
مذهب السكاكى	١٠٤
مذهب الخطيب	١٠٤
مذهب العصام	١٠٥
الاستعارة التخييلية عند السكاكى	١٠٦
فهرس الموضوعات	١٠٩

دار المصري للطباعة
ت: ٧٧٤١٧٨٦٠ - ٠١٢٢٧٧٤٩٤٧٥

obeikandi.com